# الرجل الذي لا يقاوم

مجموعة قصصية

**نجيب محفوظ**

تنشر لأول مرة

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

# مهر الوظيفة[1]

كانوا أربعة فتيان، جمعتهم في البدء نشأة الصبا على ما بين القصور الشماء والبيوت البسيطة من تفاوت ونفرة، وآخت بينهم زمالة الدراسة الطويلة ما بين ابتدائية وثانوية وجامعية، وأغراهم بالطموح إلى المجد اجتهاد عظيم وعزم متوثب ونجاح مؤازر لم يخنهم عاماً من الأعوام حتى غدوا تملأهم الثقة ويلهب قلوبهم الحماس.

وذكروا في حياتهم الدراسية العالية مثالاً لهم شرذمة من رجال مصر نشأوا على الإخاء نشأتهم، وتزاملوا في الدراسة زمالتهم. ثم كان منهم الوزير الخطير والمالي الكبير والفيلسوف الحكيم والمشرع العبقري، جعلوهم نبراساً منيراً بهداه يهتدون، ومن قوته يستمدون، وبعظمته يرجون ويأملون، ولم تقصر أخيلّتهم عن التوفيق والابداع، فربط كل منهم نفسه بواحد من هؤلاء العظام أما لصفة ظاهرة أو سجية غالبة أو خلق معروف.

---

[1] العدد ٢١٤ - بتاريخ: ٠٩ - ٠٨ - ١٩٣٧

فلما أن حصلوا على ليسانس الحقوق ووضعوا أول قدم في طريق الحياة العملية الجديدة انتظر كل منهم نصيبه داعياً أن يجد فيه ما يحقق أحلامه ويؤدي إلى هذه الحياة التي سعى إليها طويلاً وبذل النفس كي يحقق مثلها الأعلى، وما كانت الوزارة لدى الزميل منهم إلا بعض أحلامه. . .

وفي الفترة التي أعقبت ظهور النتيجة ارتحل اثنان من الأربعة - وهما الثريان - إلى المصايف كعادتهما كل عام، وسافر واحد من الاثنين الباقيين إلى كفر الشيخ مسقط رأسه، وبقي في القاهرة (الأستاذ) جودة وهو شاب بسيط الحال من أسرة فقيرة في الصيت والرجال، عميدها موظف صغير بالبريد جاوز الخمسين ولم يجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهاً، ولم ين الشاب عن السعي فحرر عدة طلبات استخدام وأرسلها إلى وزارة الحقانية وأقلام القضايا في الوزارات المختلفة، وكان طيب القلب قليل الخبرة فانتظر على شيء من الأمل والاستبشار، وفات يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان، وشهر وشهران ولم يلق رداً أو يرى في الأفق بشيراً من الأمل، فراجع نفسه في تفاؤله وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يهتم لشأنه سوى أبيه العجوز الضعيف الذي لا يملك له ضراً ولا نفعاً.

وعلى غير انتظار زاره صديقه رشدي ففرح به أيما فرح وكان في أشد الحاجة إلى من يبادله الرأي ويبثه الشكوى ويتقبل منه العزاء، فبادره سائلاً: (أراجع أنت من كفر الشيخ...؟)

فرد عليه الشاب وهو يتنهد:

(أي كفر الشيخ يا رجل... لقد كنت تلك الشهور التي غبتها عنك كالرحالة أجوب البلدان وأزور الرجال وأتسقط الرزق... والآن ما أخبارك أنت...؟)

(لا شيء مطلقاً سوى أني سعيت للتوظف وعدت من مسعاي بالخيبة... هل من أخبار عن صديقنا حامد وإبراهيم؟)

(أخبار سعيدة والحمد لله... هما الآن موظفان بالحكومة المصرية..)

(مبارك حظهما... ولكن كيف حدث هذا...؟)

(كيف حدث هذا؟ أتحسب أن حامداً يشقى في طلب وظيفة وأبوه مستشار في محكمة النقض والإبرام؟ لقد كان تعيينه بالنيابة العمومية أمراً مفروغاً منه من يوم أن التحق بالكلية)

(حسن.. وإبراهيم؟ نعم إن إبراهيم غني ولكن أهله فلاحون وليسوا من ذوي المناصب الحكومية...)

(المال أبو الخوارق، وإبراهيم شاب جسور، أفتعلم ماذا صنع. . ذهب إلى وكيل وزارة الخارجية وهو من بني بلدته، وطلب يد ابنته ومهرها ألف جنيه. . . ولما كانت هذه الفتاة من ذوات الأمزجة الرقيقة اللاتي لا يجوز أن يمضين شهر العسل في مصر فعما قريب سنذهب جميعاً لتوديع صديقنا العزيز وهو في طريقه إلى السفارة المصرية بروما. . .)

فبدت الدهشة على وجه الشاب وتساءل:

وما الذي زكاه - وهو شاب ناشئ - فطاب في عيني هذا الرجل الخطير. . . ومثل ابنته يتنافس فيها خيرة الموظفين الممتازين. .؟

(ما فائدة التساؤل؟ هب أنها عاطل من الجمال. . . أو أن رشاشاً يبلل سمعتها. . أو. . أو. . فما يهمني سوى رواية ما عندي من الأخبار. . .)

وصمتا لحظة جامدين خلا فيها كل منهما إلى أفكاره ثم نظر الشاب إلى رشدي وقال:

(ها إن الصديقين يرسمان الخطوة الأولى في الطريق المؤدي إلى المجد ولا يبعد أن يحققا مرة أخرى المثل الأعلى الذي سبق أن حققه الباشوان اللذان كان الصديقان يترسمان شخصيتهما)

فأحنى الأستاذ رشدي رأسه مؤمناً فعاد الآخر إلى سؤاله بعد تردد:

(وأنت...؟)

(أما أنا فقد سعيت كما سعيت وأغلقت الأبواب في وجهي كما أغلقت في وجهك ولكني لم أسلم للخيبة كما سلمت لها، ففي ميدان المحاماة متسع لجميع ذوي العزائم والهمم، والمحاماة ميدان تبرز فيه ملكات الرجال ومزاياهم، فلا ينبغ فيها إلا كل عبقري جبار؛ وما أجدرها أن تبلغ بي ما تتمنى نفسي من المثل الأعلى..)

هذا جميل، ولكنه لا يستطيع أن يحتذي حذو رشدي ولا أن يأمِل آماله، فآل رشدي على شيء من الثراء يمكنهم من أن يؤيدوا الشاب حتى يقف على قدميه، أما هو فلا يمكن أن يطالب أباه بشيء من هذا، لأنه يعلم علم اليقين أنه شيخ فقير. وأنه يربي خمسة من البنات والبنين، فما عسى أن يصنع...؟

لقد أظلمت الدنيا في عينيه وذوت أزاهر آماله اليانعة وبات يذكر أحلامه عن المجد والوزارة بالاستهزاء المرير والسخرية الأليمة، وداخله شعور قوي بتفاهته وتفاهة الدنيا وأحلامها ومسراتها، فعاش زمناً في ظلمة أشد حلكة من ظلام القبور.

وبعد حين زاره فجأة الأستاذ رشدي، وكان في هذه المرة منشرح الصدر جذلاً مسروراً فبادره بقوله: -

(قل معي يا بشري. . . لقد اهتديت إلى كنز ثمين. . . فأصبت منه حظاً وأرجو أن تنال منه مثل حظي. .) فنظر إليه نظرة المريض المشرف على الهلاك إلى طبيبه. فاستطرد رشدي قائلا:

(لن تغرب شمس الغد علي حتى أكون من الموظفين. . من أعضاء النيابة العمومية. .)

(مبارك. .)

(أرجو أن أهنئك بدوري عما قريب. . والآن أصغ إلي فإني أعلم أنك تتلهف إلى معرفة حقيقة المسألة. هو مكتب للمعاملات المالية في الطابق الخامس من عمارة رقم ٨٥ شارع سليمان باشا مديره رجل في الأربعين حنكته الأيام والتجارب ففاق الفلاسفة فهماً للنفوس والرجال، يعرفه جميع الماليين وكبار الموظفين لأنه يقرض النقود بأرباح هادئة. وقد غدا بحكم اتصاله بكبار رجال الدولة من زبائنه ذا نفوذ عظيم له ظاهر يعلمه الناس جميعاً وباطن يعلمه هو وهم وأمثالنا من ذوي الحاجات. . هلم أدلك على قريب لي من أصدقائه المقربين، خاطبه في أمرك فان رأى أن شروطك ملائمة كان واسطتك

إليه، وثق يا صديقي أنه إذا كتب لسعيك لديه النجاح فانك لا شك غداً من موظفي الحكومة الممتازين)

وفي عصر ذلك اليوم كان عند قريب الأستاذ رشدي. . وقد قدمه إليه صديقه فلقي منه ترحيبا شد عزيمته وأنعش أمله، قال له الرجل بعدما بسط له مسألته:

(أذكر لي الوظائف التي ترغب في الالتحاق بإحداها)

فأجابه جودة:

(النيابة العمومية. . . قلم القضايا. . . السفارات أو القنصليات. . .)

(أوه. . . إنك تنظر إلى علُ. . . فما هي مؤهلاتك. . .؟)

(ليسانس الحقوق)

(شهادة في ذاتها مبجلة. . . ولكن ليس العبرة بالشهادات. . . هل لك أقارب من ذوي المناصب. . .؟)

فضحك الشاب وقال:

(لو كان لي ما سعيت إليك. . .)

(حسن. . . من يطلب ثميناً فليدفع ثميناً. . . إلا أني أرجو أن تذكر أنه ما أنا إلا واسطة نزيهة، وإني إن مددت لك يدا فلأنك صديق رشدي ولأنه حدثني عنك بما جعلني أقدرك وأعطف

عليك. . . والآن أسمح لي أن أعرض عليك الوسائل التي قد تبلغ بك إلى غايتك المقصودة، وما علّي جناح إن لم يصادف بعضها هواك لم يستحق احترامك فعلي العرض وعليك الاختيار. . .)

فأحنى الشاب رأسه أن نعم؛ فاستطرد الرجل همسا:

(النساء من أنجع الوسائل تحقيقاً للغرض. . . أم جميلة. . . أخت شابة. . . زوج ظريفة. . . أرى وجهك تحتقن فيه الدماء. . وتلتهمه سورة الغضب، حسن فلندع هذه الوسيلة. . .)

(نعم. . . نعم. . .)

(وسيلة أخرى شريفة جداً. . . الزواج. . . ولكنه ليس زواجا بهذه الفتاة أو تلك. . . وإنما هو طلب الانضواء تحت لواء اسم كبير. . . أو أسرة عتيدة. . .)

فانبسطت أسارير وجه الشاب وخفق قلبه من نشوة الأمل وصاح:

(هذا علي هين. . .)

(لا تتسرع فليس الأمر كما تظن. . . فشهادتك لا تكفي. . . هذه الأسر تهمها المحافظة على المظاهر. . . وصون اسمها عن انتقادات الصالونات ما أمكن. . . فمهر كبير يخرس الألسن ويدعم أي ادعاء وإن بعد عن الحقيقة. . .)

فعاوده اليأس واستشعر الخيبة مرة أخرى وقال: -
(فلألحق بوظيفة. . . وليدعوا لي فرصة حتى اقتصد من مرتبي وأفي بوعدي. .)
(وما الداعي لرهان غير مضمون. . . والزبائن النافعون غيرك غير قليلين. .؟)
(إذاً هات وسيلة أخرى. . .)
(وا سفاه إنها لا تكاد تختلف عن هذه إلا في الاسم. .: هي المال)
(وكم ينبغي أن أدفع؟)
(مهر الوظائف التي تطلب من الألف فصاعدا. . .)
الألف. . . إن والده لم يربح من الحكومة طوال عمره بها ضعف هذا المبلغ فكيف يأتي به في ساعة من الزمن؟ أواه. . . إن اليأس ينشب فيه أظافره فيستقر في قلبه. . . ولكن التمعت في ذهنه فكرة فصاح:
(لم لا يقرضني صاحبك المُرابي المبلغ الذي يريد ويكتب علي صكا أسدده فيما بعد من مرتبي؟)
(فكرة حسنة، ولكنه رجل مرت به جميع التجارب وهو يرفض عادة أن يقرض مبالغ ضخمة لغير ذوي المراكز المالية المضمونة، ولكنه قد لا يرى بأساً من كتابة صكوك وهمية

كهذه بمبالغ صغيرة. . . مائة جنيه أو مائتين لمن يرغب في وظيفة كتابية مثلا. . .)

وظيفة كتابية؟ أين هذه من المجد والوزارة ومَثَله الباشا العظيم؟

ولكن ما باليد حيلة وقد سدت في وجهه الطرق وأظلمت الدنيا في عينيه فينبغي أن يغض عن الآمال العالية ولو إلى حين ريثما يبحث عن كسرة الخبز أولا، ومن يعلم فقد تتمخض البداية الصغيرة عن نهاية عظيمة؛ فكم من الوزراء بدءوا كتبة في المحاكم المقبورة في أقاصي الصعيد.

وهكذا اضطر إلى أن يحول قلبه عن محركات الدولة الكبرى إلى آلاتها الصغرى الميكانيكية التي تتحرك ولا تدري لم تتحرك أو كيف تتحرك.

وأصبح ذات يوم فوجد نفسه في حجرة واسعة تتزاحم فيها المكاتب الهرمة يقعد وراءها قوم خيل إليه - لجمودهم وتفاهتهم - أنهم قطعة من بنيانها المتهدم.

المركز صغير. والمرتب ضئيل. ترى هل ينتظر طويلا كي يضخم هذا المرتب أو يعلو هذا المركز؟ واقترب برأسه من زميل له وسأله همساً:

(ما موعد علاوتي المقبلة؟)

فنظر إليه الرجل دهشاً ورد عليه بصوت مسموع رنان:

(يحل موعد علاوتك - ومقدارها جنيه واحد - بعد أربع سنوات بصفة اسمية تصير فعلية بعد سنة فالمدة كلها خمس سنوات. . .)

ولفتت إجابة الرجل انتباه الحاضرين فعرفوا بداهة السؤال الذي اقتضى هذه الإجابة فلم يملكوا أنفسهم من الضحك. . . ومن حقهم أن يضحكوا من هذا الشاب الذي يسأل عن موعد علاوته ولما يمض عليه في العمل أسبوع، وقال له واحد منهم:

(ستعلمك هذه الوظيفة أن تستهين بمتع فترة من عمرك وهي الشباب. . . فتستحث كل يوم - من أجل جنيه واحد - خمس سنوات من العمر اليانع أن تفوت وتنطوي. . .!)

# الرجل الذي لا يقاوم[٢]

في تلك اللحظة التي لا تنسى حين وجه المأذون سؤاله الفاتن إلى صابر أفندي عبد الخالق: (هل تقبل نكاحها؟). ثم عطفه إلى الآنسة حياة الخضيري قائلاً: (هل تقبلين نكاحه؟). في تلك اللحظة التي لا تنسى تنهد قلبان ارتياحاً وغبطة بعد أن احترقا شوقاً وجوى عشرة أعوام تساوي مائة عام مما تعدون. وقد لهجت الألسن بالخبر السعيد أكثر مما ألفت أن تلهج بنبأ زواج. لأن الحب الذي آلف بين هذين الشخصين عشرة أعوام طوال كان ذاع أمره، وجرى مجرى الأمثال ذكره، فغدا نادرة يطرب لها الكواعب ويستدفئ بها العجائز في أحياء غمرة والسكاكيني والظاهر وغيرها من الأحياء القريبة التي شاهدت من آياته ما تهتز له النفوس وتخفق القلوب. وقد طغى هذا الحب واستبد. فهزأ بالكبرياء، وأزال الفوارق واستأداهما ما يطيقان وما لا يطيقان من التصبر والتجلد والإخلاص والوفاء، فأدياها إليه عن طيب خاطر، وقدما على مذبحه القرابين عاماً

[٢] العدد ٣٦٣ - بتاريخ: ١٧ - ٠٦ - ١٩٤٠

بعد عام. أما حياة فهي كريمة السيد شلبي الخضيري تاجر الأخشاب ذي الثروة الواسعة والجاه العريض، والمكانة الملحوظة في أسواق التجارة وميادين السياسة والحياة النيابية، وكانت إلى هذا حسناء في مقتبل العمر مشهوداً لها بالجمال الفائق والرشاقة الفاتنة. وأما صابر فمن أسرة فقيرة من عامة الشعب، ارتقت به مدرسة الصنائع إلى وظيفة مهندس كهربائي بمصلحة الميكانيكا بمرتب ستة جنيهات. فوهبته قلبها وجمالها وصدقته المودة والإخلاص، وأعرضت وفاء له عن عشاق ملحين عنيدين، ورفضت أيادي شبان ذوي حسب ونسب وجاه، منهم طبيب وجيه، وضابط بوليس يعبث شريطه الأحمر بالأفئدة. فلم تطع سوى قلبها العاشق المفتون. وحافظ هو من ناحيته على عهدها، وأخلص لها الحب، وليس هذا بالشيء الذي يستهان به في مثل عصرنا هذا. وتحمل في سبيلها أذى كثيراً دأب والدها على توجيهه إليه قبل أن يسلمه اليأس من إذعان كريمته إلى قبوله. وفوق هذا، فلم يكن مما يجذبه إليها جاذب الطمع في مال أو جاه أو ترق، فكان حبه خالصاً نقياً. على أنه لم يعرف عنه مع ذلك أنه كان يغض الطرف قط عن حسان السكاكيني أو الظاهر، وما كان

يستطيع ذلك، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أنه احتفظ بقلبه وحبه لها دون بنات حواء جميعاً. . . وشاء الحب أن يختم ألم السنين بهذا الزواج. فقال أناس: إنه إذا كان الحب قد حكم أن يدعوهما دواماً إلى حدائق القبة وبساتين غمرة، فالزواج لا شك محتبسهما في بيته إلى الأبد، وأنه لن يرى بعد ذاك اليوم صابر أفندي إلا حين ذهابه إلى مصلحة الميكانيكا والكهرباء، أو عند أوبته منها. وصدقت فراستهم، ولكن شهراً واحداً رؤى الشاب بعده ذات مساء يغشى قهوة كان دائم التردد عليها أيام عزوبته، وقد نفخت فيه الحياة الجديدة نضارة وسعادة، فبدأ أنيقاً جميلاً، فلم يدهش لذلك رفاقه وتلقوه فرحين. . . فمضى يغيب حيناً ويعاود أحياناً، ثم اختفى ردحاً طويلاً فظنوا جميعاً أنه آثر هدوء البيت على ضجيج القهوة، ولكن واحداً ممن يتطوعون لإذاعة الأخبار قال إنه يراه كل مساء يجلس أمام (صالون الكمال) في شارع قمر لا يبرح مكانه حتى يغلق (الصالون) أبوابه حوالي الساعة العاشرة. فوقع القول من النفوس موقع الدهشة وتساءلوا عما يغري صاحبهم بتجنبهم وملازمة صالون الكمال. وكان بينهم خبثاء متطفلون فلم يهدأ لهم بال حتى أرسلوا رسولاً منهم يستطلع الخبر. وعاد الرسول

بما هو أدعى إلى الدهشة، والإنكار قال: إن صابر عبد الخالق يسعى وراء حب جديد، وإن التي شغفته حباً هذه المرة معلمة بروضة الأطفال تقيم بشقة في العمارة رقم ١٠ بشارع البستان المواجه لصالون الكمال...

كيف أمكن أن يحدث هذا التحول الغريب؟ هل خبا الحب الذي صمد للشدائد عشر سنوات بهذه السرعة؟.. ترى هل خنقه الملل في شهر وبعض شهر؟... أم بددته الخيبة وانقشاع الأوهام؟... وكيف مكن أن ينزع قلبه إلى امرأة أخرى بهذه السهولة بعد أن تعود على حب زوجة ذاك الدهر الطويل؟!

قبل أن نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أكثر مما عرفنا إلى الآن من هو صابر عبد الخالق؟

هو شاب في الثلاثين له فضائله وله رذائله مثل جميع الناس. فمن فضائله احترامه لنفسه وحرصه على كرامته ومحافظته على آداب البيئة وتقاليدها المتوارثة، وإن كان يشوب حماسه لهذه الفضائل ضيق آفاقه وانحصار ذهنه وضحل ثقافته مما يجعله ينحدر في كثير من الأحايين إلى الصلف والتعصب. وأما رذائله فهي أدنى إلى الفكاهة منها إلى الشر وتدور جميعها حول الغرور، والغرور الموجه إلى مزاياه الجسمانية قبل كل شيء.

نعم لا أنكر أنه عظيم الثقة بمواهبه العقلية وقدرته الفنية كمهندس قليل النظير، ولكن تيهه بحسنه واعتداده بجماله يفوقان كل تقدير. وليس ثمة شك في أنه يحظى بقسط من الوسامة والجمال فقد خلق الله له عينين سوداويين يظلهما حاجبان مقرونان، وأنفاً مستقيماً. ولكن عجبه فاق حسنه كثيراً وغلب أثره على فعاله وأقواله، وكان أمراً ملحوظاً لدى رفاقه منذ الصغر فاستبقوا إلى العبث به تارة بإطراء جماله، وتارة بإبداء إشفاقهم على الحسان من وقعه وفعله. فما خطر له على بال أنهم يهزأون به؛ وازداد عجباً وما عتم أن غدا عجبه داء لا شفاء منه. ولذلك كان احب الأشياء إلى نفسه أن يقف أمام المرآة يطالع صورته المحبوبة وقوامه الرشيق ويطيل النظر إلى عينيه الدعجا وبين ثغره المليح المفتر عن ابتسامة وضاءة، المكلل بشارب (كلارك جابل). كما كان أشق الأمور على نفسه أن يسعى إلى اقتناء بذلة يلف بها حسنه وشبابه. فما كان يطمئن ذوقه حتى يطوف بمحلات القاهرة التجارية جميعاً فاحصاً مفاضلاً بين الأصناف والألوان، ومتى وفق إلى اختيار لون منها واجه متاعب التفصيل، وتجاذبت عقله المودات الحديثة، أنهكت قواه البروفات المتتابعة؛ ثم يمضي في تخيُّر

القميص الموافق للبذلة، ورباط الرقبة الملائم للقميص، والمنديل الموائم لرباط الرقبة، ولا ينسى - إتماماً للتناسق العام - الحذاء والجورب المناسبين. كان متأنقاً شديد الحساسية إلى حد الإرهاق. فكان الكواء يوجه إلى ثيابه عناية لا يوجهها لثياب أحد من زبائنه الآخرين. ويحلف الحلاق أنه يلقي في ترجيل شعره وتطرية شاربه من الجهد مالا يلقاه طبيب يتصدى لحاله وضع خطير لهذا لم يكن عجباً أن يستهين بتضحية زوجة في سبيله، وأن ينكر على القائل قوله: إن إخلاصها له نعمة يحسد عليها. بل كان في أعماقه يعتقد أنه صاحب الفضل وأنها صاحبة الحظ التي يحسدها عليه بنات حواء جميعاً. كيف لا وقد وقف عليها جماله الذي تقتتل عليه أجمل الحسان؟!. . . وقصة حبه الجديد آية على غروره قبل كل شيء. فلم تكن إلا أنه رأى فتاة تعبر شارع السلحدار ذات أصيل فراقه منظرها، لأنها كانت ذات قد رشيق ووجه خمري مستدير رقيق القسمات. يولد تناسقها في النفس اشتياقاً ويؤرث في الصدر حرارة. فتبدي على وجهه الرضا، وهز رأسه طرباً كأنه يتابع لحناً شجياً. وكان إلى جانبه ساعتئذ شاب من معارفه لم يفته ما بدا عليه. فأدنى رأسه من أذنه وقال بلهجة ذات معنى:

- حذار فالنظرة إلى هذه تعقبها حسرة

فأنكر صابر قوله وسأله ببساطة وعيناه تتعقبان الفتاة المجدة في السير:

- ولمه؟

فقال الشاب بخبث:

- لأنها فتاة جد، لا تلوى في سبيلها على شيء ولا تعير المغازلات أدنى التفات. وما تزال تتردد كل صباح وكل مساء ما بين بيتها في شارع البستان وروضة الأطفال بشارع السلحدار مقتحمة أنظار المتطفلين كأنما تحتفظ بقلبها في صندوق مغلق ضائع المفتاح

فساءه هذا الوصف وأحس بمرارة لما آنس فيه من تحد وقال متفلسفاً على قدر عقله:

- قلب أي امرأة في صندوق ضائع المفتاح كما تقول، والعبرة بالرجل الأريب الذي يقدر على الظفر بهذا المفتاح. وهز منكبيه باستهانة وابتسم ابتسامة ساخرة مشبعة بالثقة والطمأنينة، وودع الفتاة التي شارفت نهاية الطريق بنظرة وعيد. ولم يكن يداخله أي شك في قدرته وفنه، ولا تزعزعت ثقته بنفسه قط، ومع ذلك لم يرتح قلبه، ووجد في كلام صاحبه تحدياً صريحاً لا

يجوز السكوت عليه؛ وجعل يتساءل في غيظ وحنق: ترى هل يمكن حقاً أن تقتحمه هذه المعلمة إذا تصدى لها...؟

هل يستعصي عليه العثور على المفتاح الضائع؟ وتكدر صفوة تلك الليلة. وفي أصيل اليوم الثاني قصد إلى شارع السلحدار، ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يدفع بنية يتحرج لها ضمير زوج مخلص مثله، وإنما ساقه انفعال غضب وعاطفة لا نتنكب الحق إذا قلنا إنها علمية إلى درجة ما، لأنها كانت تتشوف إلى التحقيق والتجريب. قصد إذاً إلى شارع السلحدار وانتظر. ثم رآها تبرز من باب المدرسة بقدها المشوق. فوثب وتحفز حتى إذا صارت منه على مرمى نظرة سدد إليها عينين فاتنتين، ولكنها سارت لا تلوى على شيء كما قال صاحبه، وضاعت النظرة في الفضاء منضمة إلى أسرتها من الأنوار الكونية. فأحس بخيبة وأحنقه جفاؤها السكسوني، فصرَّ على أسنانه وسار في أعقابها. ومضى يشاهد خصرها الدقيق وردفها المستوي ويقول لنفسه متعزياً (لو اصابتها النظرة لذاب جفاؤها كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس). وأرد أن يلفتها إليه، وتنحنح وسعل سعلة مؤدبة، ولكنها لم تبد أدنى اهتمام، فأوسع الخطى حتى حاذاها، وكاد أن يلمس كتفها، فأوسعت الخطى بدورها

لتسبقه فاستبقا. وأدركت بلا ريب أن شخصاً يطاردها فالتفتت نحوه بغضب، وكان يتربص للفرصة السعيدة فصوب إليها نظرته المشهورة، فردت عليها بنظرة عنيفة كأنها تقول له: (مكانك يا هذا). وتنحت عن سبيلها منعطفة إلى اليسار ثم انتهت المطاردة بانتهائها إلى العمارة رقم ١٠ بشارع البستان وتردد أمام العمارة مرتين، ولم يجد بداً من العودة فقفل راجعاً. وكان مهموماً مغتماً كمن يقفل من معركة دامية لا مطاردة غرامية. وما كان يشعر بأي إحساس من أحاسيس الحب أو الفتنة، ولكن كانت تضطرم في قلبه عواطف الكفاح والقتال وبات ليلته وقد صدقت عزيمته على الجهاد إلى النهاية وتوجه في أصيل غده إلى المكان نفسه - وانتظر حتى رآها تسير نحوه في مشيتها التي تجمع بين الرشاقة والشدة فتبعها على الأثر، وأدرك لأول وهلة أنها لا تجهل تعقبه لها وأنها برمة ضيقة به، ولكنه سار في طريقه غير حافل بتذمرها، لأنه كان عنيداً مثابراً ملحاحاً؛ فكان جزاؤه نظرة أشد من نظرة الأمس. وفي اليوم الذي بعده خرجت عن صمتها بأن قالت له بلهجة خشنة صارمة: (من فضلك بلاش قلة أدب). وفي اليوم الرابع قالت له بنفس اللهجة (شيء بارد). وقالت له في اليوم الخامس وهي

تحدجه بنظرة وعيد (إذا لم ترتدع عن هذا السلوك الشائن ناديت الشرطي)، ولما كانا في اليوم السادس لاذت بالصمت يأساً وتجاهلته، ولكنها لم تناد الشرطي، فتنهد ارتياحاً وعد سكوتها فوزاً مبيناً. وأخذته نشوة طرب فسأل لسانه بكلام - وإن يكن مبتذلاً غاية الابتذال، ويحفظه جميع من هم على شاكلته عن ظهر قلب - إلا أنه كان يحسبه من الرقى الغرامية كنظرة عينيه سواء بسواء. قال لها: (يا معجباً بنفسه يا شديد الجفاء بغير سبب. يا تياها بجماله، هل ذنبي أنا أنك جميل ولا نظير لك في الكائنات. وهل جرمي أن لي قلباً يشعر ويهيم بالجمال. أيصح أن تنذريني بالأمس بالشرطي. وهل ينادي الشرطي للعاشقين... الشرفاء... أمثالي، ومع ذلك نادي الشرطي، بل نادي الموت نفسه فلن أبرح حتى أسمع من الفم الصغير هذا - الذي يحاول خنق ابتسامة بريئة بغير ذنب - ما يدنيني إلى أملي...)

ولم يعد يقنع بالمطاردة القصيرة التي تبدأ في شارع السلحدار وتنتهي في شارع البستان، ووجد في موقع صالون الكمال من العمارة رقم ١٠ ما يشفى شوقه وطمعه. فانضم إلى زبائنه وتودد إلى صاحبه وجعل منه ناديه المفضل على كل مكان

وكان يندفع بادئ الأمر - كما قلنا - بقوة غضب ورغبة في الغلبة. وكان يعتزم أن يقف ويتراجع حين تلين وتراخى. وكان يعود من كل مطاردة - في أول عهده بها - ولا فكر له إلا عنادها وصلفها وغضبه وخنقه. ثم أخذت صور أخرى منها تتسلل بمهارة فائقة إلى مخيلته مثل قدها الرشيق وعنقها الطويل وقسماتها الصغير المتناسبة. ومضت هذه الصور تزحف على وجدانه من سراديب حواسه وتندس إلى زوايا قلبه وهو لاه عنها بحنقه وكفاحه. فغدا يتعرض لها مسوقاً بأشواق وحنين. وملبياً نداء يصعد من أغوار نفسه حتى أقر أخيراً في إشفاق وقلق وذعر أنه يحبها. وأن الداء يبرح به مرة أخرى. وصادف به مرة أخرى. وصادف اكتشافه لحقيقة عواطفه تراخي الفتاة واستلامها فلم يقف ولم يتراجع كما كان اعتزم. بل شد على يديها في حماس دافق واندفعا معاً في سبيل الحب، وفتحت له نفسها وبسطت أمام ناظريته صفحة حياتها البسيطة فعلم فوق ما كان يعلم عنها أنها تعيش مع أمها وخالتها، وأنهما في غير حاجة مادية إليها وقد أكدت له ذلك تأكيداً لم يخف عليه مغزاه. أما هو فأخفى عنها جل نفسه فلم يدر لها بخلد أنه زوج وأنه إلى درجة ما عريس. وكان هذا ما يكدر صفوه وينتزعه من

سكرة أحلامه، فمثل الصلة التي بينهما لا يمكن أن تدوم قانعة باللقاء صباح الجمعة بحديقة الوطن بهليوبوليس، ومساء الأحد بسينما ركس. وفضلاً عن ذلك لا يمكنه أن يتغاضى طويلاً عن تلميحها المستمر إلى موضوع الزواج. فلم ير بداً - حرصاً منه على الاحتفاظ بها - من مجاراتها في أحاديثها فما لبث أن جرى ذكر الزواج على لسانيهما وناقشاه على اعتبار أنه النهاية التي تهفو إليها نفساهما

وخطت درية خطوة أخرى فدعته إلى زيارة بيتها لتقدمه إلى أمها وخالتها. وهنالك أسقط في يده لأنه ما كان يستطيع أن يلبي الدعوة ولا كان يدري كيف يرفضها، والاعتذار لا يغني عن حالته طويلاً. فما عسى أن يفعل؟ أيلوذ بالفرار ويختفي من أفقها إلى الأبد؟ قد يبدو هذا الحل ما فيه من نذالة أوفق الحلول، ولكنه لم يستطيع على شدة حرجه أن يأخذ به، لأنه كان انفعالي المزاج لا يزع نفسه عن هوى. وكان في الحق قد غدا مستهاماً بها كلفاً. فألف صورتها وحديثها وإيماءاتها ألفه مازجت روحه وسعادته. فهل يعترف لها بالحقيقة ويسألها المغفرة... ولا هذا استطاع لأنه أشفق من أن يأخذها الارتياع فتنفر من خداعه. أو تيأس منه فينصرف قلبها عنه. واشتدت به الحيرة

وساورته الهموم وتشتت عقله بين شعاب مظلمة. وما فتئ يماطل ويسوف. وما يدري كيف يوفق بين هواه الجامع وظروفه القاسية... حتى تبرعت المصادفات بالحل الموفق وكان اليوم الجمعة وقد عاد إلى بيته - وكان يساكن حماه - في الساعة الرابعة مساء. وكان يترنم بأغنية بصوت خافت متناسياً أشجان قلبه إلى حين، وفتح باب شقته في هدوء وهم بالدخول، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع الآنسة درية. وخفق قلبه خفقه شديد انخلعت لها ضلوعه، وصاح وهو لا يدري: (أنتِ) ولم تكن أقل منه دهشة، فرددت قوله: (أنتَ) وعند ذاك فقط أدرك أن زوجه تقف إلى جانبها، وإلى يمينها أخوها الصغير (توتو) ممسكاً في يده بكراسة... ومرت به لحظة رهيبة أحس بأن الأرض تميد به، ولفه ذهول قهار، فلم يستطيع أن يكتم عواطفه ولا أن يداري افتضاحه، وكانت الزوجة تراقبها بعينين مرتابتين وقد امتقع وجهها وارتعدت شفتاها، ثم ارتسمت على فمها ابتسامة صفراء وسألت المعلمة قائلة بصوت متهدج:

- هل تعرفين زوجي؟

ولم تدر الفتاة بماذا تجيب، وقد دوت في أذنيها كلمة (زوجي) دوياً مزعجاً، فرددت عينيها بين صابر وزوجه ثانية، ثم خفضت

عينيها الزائفتين واستولى عليها اليأس والغضب وانفلتت إلى الباب لا تلوى على شيء، ولم تنبس بكلمة ولم تترك وراءها مكاناً لشك أو ارتياب وكانت الزوجة تشعر بالفتور الذي اعتور علاقتهما وتتحير في تعرف أسبابه، فعلمت أن لها غريمة وأن غريمتها هي معلمة (توتو) الجديدة، فغضبت غضبة نفست عن صدرها الكظيم. ونمت الفضيحة إلى أمها، فاستفحل الخطب، ولم تنته الليلة حتى حمل صابر حقيبته وعاد إلى بيته وحيداً كئيباً... ولكن الله سلم؛ ولم يبخل عليه بالغفران القلب الذي صدقه الحب عشرة أعوام فقفل إلى بيت الزوجية تائباً. وتراه الآن إذا ظهر في الطريق يسير متأنقاً مزهواً كعادته، فإذا وقع بصره على وجه نضير أو قد رشيق ابتسم ابتسامة الزهد والكبرياء. فإذا خطر لأحد من صحبه أن يداعبه أو يتحداه ابتدره قائلاً: (حسبي...

حسبي... لا أريد أن أجرح قلوباً بريئة)

# حلم ساعة[٣]

من عجيب الأمور أننا قد نحيا الحياة سعيدة نخالها طويلة في حلم قصير الأجل. وما تعتم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان، فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلا على هواء. على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته، كان يوماً أو بعض يوم، ولكن قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة، وحَلق في آفاق بعيدة من أحلام المنى، وخفق خفقة فرح سماوي جاز به عالم الزمان والمكان. ثم أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد، على نحو بالغ في القسوة والوحشية... كيف كان ذلك؟!...

كان اليوم السعيد يوم الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علما عائداً من سماع محاضرة علمية في الجمعية الجغرافية الملكية عن الغدد الصماء؛ وكان يسير في ميدان الإسماعيلية متفكراً في يتلك الأدوات الإنسانية العجيبة المسيطرة على الفرد أيما تسطير، وكيف يزعم العلماء أنهم بالتحكم في إفرازاتها

[٣] العدد ٣٦٧ - بتاريخ: ١٥ - ٠٧ - ١٩٤٠

يستطيعون أن يحولوا الطيب إلى شرير، والشرير إلى طيب، والشاعر إلى رياضي، والرياضي إلى شاعر. وكيف يفسرون أخيلة جيتة وأحلام شيلي بعصاراتها المتدفقة في الدم؟... وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار، فهي مادة عمله ومادة حياته معاً. وفي الواقع يندر أن تجد بين الشباب المعيدين بكلية العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين في حبه العلم وحرصه على تحصيله

وكأنما أرهقه القعود والسكون - في أثناء إلقاء المحاضرة - فأحس بارتياح إلى المشي واعتزم السير على قدميه إلى شارع فؤاد الأول، واتجه إلى شارع قصر النيل في خطى وئيدة يدخن لفافة من التبغ ويجتر أفكاره وتأملاته في لذة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيما يشبه العدو، فتوقف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل، وتوقفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرآها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار ثم مضت في سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة وكأنها تحاول تذكرة ولا تدري كيف، ثم أدركت ما في نظرها إليه هكذا من الغرابة، فأدارت رأسها عنه وما روت غلة، وقصدت إلى

سيارة تنتظر إلى جانب الطريق، فأدرك من أول وهلة أن صورته اشتبهت عليها وعلت لذلك فمه ابتسامة، وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظرة إلى السيارة - وكان جاوزها بأمتار - فرآها تتابعه بنظرتها تعلو وجهها آي الحيرة والغرابة. فغمرته موجة انفعال مضطرب لذيذ وتعثر بأذيال الارتباك والحيرة. ثم تحركت السيارة مندفعة في الاتجاه الذي يسير فيها وما تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحير بماذا يصفها. . ودية! حنون؟. . . حتى باعدت بينهما المسافة. . .

وعجب الأستاذ أيما عجب، على أن عجبه كان شيئاً يسيراً إلى ما أحس به ساعتئذ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابة حسناء مدمجة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسمات، يزين وجهها عينان زرقاوان لنظرتهما وقع السحر في الحواس والقلب والأعصاب. فانبعث في قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة، ثم لسعته حسرة أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان وكانت حياته في الواقع خالية من الحب مثل كهف رطب لا تزوره الشمس، لأن تفانيه في طلب العلم لم يدع له وقتاً لشيء سواه، ولعيبين طبيعيين كبرا في وهمه واشتدا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنه ثقيل الظل، وكان إلى

هذا عيباً حصوراً لا يكاد يبين، فلم يكن في وسعه قط أن يحسن خطاب فتاة فضلاً عن أن يغازلها. ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان. وإلى ما يشبه الخوف منهن. وحز لذلك الألم في نفسه وسكب في قلبه امتعاضاً ومرارة، فتبدى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهداً طويلاً يائساً بين الرغبة في الحب والخوف من المرأة، والتشوف إلى النساء والحقد عليهن. فكانت تلك النظرة الحلوة أول نسمة تهب عليه من دنيا الوجدان فترتوي بها نفسه الظمآنة ويندى بها قلبه الجاف ولكنه ارتواء كالظمأ وندى أشد حرقة من الجفاف. فتحير وتعجب وتساءل وهو يقلب كفيه: ترى ما خطب هذه الفتاة؟.. وما معنى هذه النظرة الفاتنة التي أذابت الوجد والهيام والحنو المتجمدة في قرارة نفسه؟... إنه لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنه رآها من قبل، وهي بغير ريب لا تعرفه أيضاً، فلا هي قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلية العلوم، ولعله التبس عليها شبهه، ولكن كيف طال بها الشك تلك المدة السعيدة التي أدامت فيها النظر إليه؟!... ومضى يتفكر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعاً...

وكان في عزمه أول الأمر أن يعود إلى بيته فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع ساعة قبل النوم. ولكن عافت نفسه ذلك ومضى ويضرب في الأرض على غير هدى تاركا محرك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدرة حتى أعياه التعب وتعناه المشي؛ وكان سرى عنه بعض الشيء وأخذ يفيق من أثر النظرة، فاتجه إلى قهوة روجينا وجالس بعض صحبه حتى شارفت الساعة التاسعة. ثم خطر له أن يقضي سهرة المساء في سينما رويال - وكان قليلاً ما يجذبه مزاجه إلى ذلك - فسار بلا تردد إلى السينما وابتاع التذكرة. وكان يكره الانتظار جالساً فدلف إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية وقلب فيها عينيه، ثم أولاها ظهره ملالاً وأرسل بناظريه إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين. فرأى سيارة فخمة تقف أمام مدخل السينما، وفتح بابها ونزلت منها سيدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه في صدره وأحس بفرح عجيب تمازجه دهشة، فلم تتحول عنها عيناه. وفاته في ذهوله أن يرى ضابط بوليس شاب يبرز من الباب الثاني للسيارة ويدور حولها بسرعة ويلحق بالسيدة والفتاة. وانعطف رأس الفتاة إليه - وكانت فتاته دون سواها - كأنما

جذبتها قوة بصره المشوق فالتقت عيناهما، ولاح على محياها الجميل الاهتمام والدهشة ورقت نظرتها بالحنان الذي حيره وفتنه منذ حين. فتبعها في خطى مضطربة ملبياً نداء وقوة عاتية. وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثاني فوقف في الردهة يتابعها بعينيه. ورآها قبل أن يغيبها عن ناظريه منعطف السلم تلقي عليه نظرة أخرى... يالها من نظرة... فاستخفه طرب جنوبي عذب لا يتأتى لغير الموسيقى وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوي على شيء، فلما اطمأن به مقعده مضى يصعد نظره في (الألواج والبناوير) باحثاً عن الوجه الحبيب ذي النظرة الفاتنة الحنون. حتى وجد ضالته في (البنوار) رقم (٣)، وكانت تتقدم السيدة لقامتها الهيفاء. والتقت نظرتها بوجهه هذه المرة أيضاً، وكأنها كانت تتوقع أن تجده مجداً في العثور عليها فارتسم على شفتيها القرمزيتين شبه ابتسامة أضاء لها وجهها بنور بهي. وجلست وهي ترنو إليه بعينيها فبدت وهي تنحني قليلاً وكأنها تحنو عليه. وأنقذه من سعادته، التي لا تحتمل، انطفاء الأنوار وانهماك الشاشة في عرض أخبار الدنيا... كان قلقاً مجنوناً إلى غير حد، فرحاً سعيداً بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدري ماكنهها إلى

القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندت أهدابه بدمعة أحس بتفجرها من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقاً يتلقى قلبه لأول مرة أمواج الحب الكهربائية الغامضة غموض الأثير. وأغمض عينيه في الظلام وهو يتنهد في ارتياح وغبطة مستسلماً للذة الأحلام. وتساءل في استسلامه السعيد: ترى ما الذي ساقه هذا المساء إلى السينما ولم يكن أعد نفسه لذاك؟... إن كل شيء يبدو وكأنه يؤكد أن القدر يرسم خطة رائعة بدأها في شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها في سينما رويال. نعم إنه لم يرها عبثاً، ولن تلتق عيناهما مصادفة؛ كلا، ولم يأت إلى السينما اتفاقاً. ولكن الحب يخلق الحوادث والظروف، وإلا فما معنى هذه الحلقة المتقنة؟! وما معنى هذه النظرة الحنون العذبة التي دل تكرارها على أنها مقصودة!؟ أليس هذا الذي يسمونه الحب من أول نظرة؟... بلى، هو هو... ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفتانة النافذة التي لن يمحى أثرها من نفسه. كيف حدث هذا... هل كان القدر في قسوته عليه وازوراره عنه يدخر له هذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدري؟.. وهل وُجدت أخيراً من لا تستثقل ظله كما يستثقله كثير من الناس... ومن تتعرف نفسه بالنظرة الملهمة لا بتغرير الألفاظ

وسحر البيان؟... كم سخط على الدنيا ظلماً؛ وكم أدان القدر جهلاً... والساعة الساعة ينتهي الجفاء وتتبدد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب قلبه اليابس. وفكر الأستاذ بهاء الدين مع ذلك في أمور غاية في الأهمية والجد تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرف والخطبة، ولا فاته - في تلك الساعة - أن يقدر المهر ويحدد تاريخاً للزواج السعيد...

ولم يحس بالوقت كالسعداء. وجعل يتأمل بعين مخيلته الوجه النضير والنظرة النافذة إلى القلوب، مستسلماً للأحلام استسلام الحران إلى برد النسيم حتى ظن أن أشهى الأماني دانية لا تكلفه إلا أن يمد يده فيقطفها في يسر واطمئنان وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى، وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنه يصحو من نوم سعيد. وصعد رأسه إلى (البنوار) رقم ٣، فرأى فتاته في أجمل صورة ترمقه بنظرتها الفاتنة كأنما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، ورآها تميل برأسها نحو السيدة البدينة - التي تدل الظواهر على أنها أمها - وتهمس في أذنها، ثم شاهد السيدة تنظر إلى أسفل باحثة بعينيها حتى استقرتا عليه... فارتبك وتعجب وتساءل ترى لماذا

تدل أمها عليه؟... على أن عجبه ازداد إلى غير حد، لأنه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحادث شخصاً لا يرى سوى أعلى طربوشه. ومال هذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس. فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام. ولكنه تذكر هذا الضابط، وذكر أنه كان من زملاء فرقته في الخديوية، وأنه يدعى علي سالم، وأنه كان مبرزاً في الألعاب الرياضية، وظن أنه أخو الفتاة، ولكنه تحير في فهم الدواعي التي بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكل جسارة، وفيما عسى أن تكون حدثتهما به عنه... وغلبه الشوق وحب الاستطلاع فرفع بصره إلى (البنوار) مرة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدقة فيه. وخيل إليه أن زميله القديم يحييه، فلم يصدق بصره وظل جامداً لا يتحرك، فأعاد الضابط تحيته برفع يده إلى رأسه ورد عليه الأستاذ التحية مرتبكا، وشاهده يدعوه أن يصعد إليه، فخفق قلبه خفقة عنيفة وقام واقفاً وقد لفته الدهشة والارتباك، وغادر المكان في ذهول شديد، وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل (البنوار) واستقبله هذا استقبالاً ودياً وشد على يده بحرارة - ولعله فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك - ثم أوسع له وهو يقول هامساً:

(تعال أقدمك إلى أهلي، ووجد نفسه في البنوار أمام السيدة والفتاة الجميلة. وقال الضابط يقدمها له وهو يشير بيده:
(حرم الأميرالاي محمد جبر بك. الآنسة زينب كريمتها وخطيبتي)
ثم التفت إليه وقدمه لهما مكتفياً بذكر اسمه وزمالته القديمة لأنه كان يجهل حاضره. ودوت كلمة (خطيبتي) في أذنه دوياً مزعجاً أطفأ نشوة الفرح في حواسه جميعاً وسكب مكانها خيبة مرة، فجلس كما طلب إليه ذاهلاً مرتبكاً قانطاً عاجزاً العجز كله عن حصر انتباهه فيما حوله، وكانت السيدة ترحب به وتشارك الضابط في التودد إليه ومجاملته ولكنه لم يدر مما قالا شيئاً، واكتفى بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفتيه يرد بها عليهم رداً صامتاً كئيباً. وكان يتخبط في حيرة عمياء، لا يدري لماذا دلت الفتاة عليه، ولا كيف دعاه زميله، ولا لأي سبب عرفه بهما وعرفهما به... ولاحت منه نظرة إلى الفتاة، فوجدها تبتسم إليه ابتسامة حزينة، فشعر بامتعاض، ووجه عينيه إلى أمها كأنما يفر منها فراراً، فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورقتين بالدمع، فازدادت دهشته وبدا عليه الانزعاج، والتفت إلى صاحبه متسائلاً متحيراً. ودق الجرس في تلك اللحظة منذراً بإطفاء الأنوار، فقام الشاب واقفاً وأحنى رأسه

محيّياً، ودعته السيد إلى زيارة البيت، فوعدها قائلاً: (إن شاء الله) وهو لا يعني ما يقول. وغادر (البنوار) ولحق به صاحبه، وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج، فقال له وهو يشد على يده مودعاً:

(إني آسف جداً على ما أحدثته دعوتي لك من الارتباك والانزعاج، وحقيقة المسألة أنك تشبه شبهاً عجيباً ابناً شاباً فقدته هذا الأسرة منذ عامين. ولعل هذا يفسر لك كل شيء أيها الصديق.....)

وهبط السلم في خطى بطيئة جدا. وكان يتوقف كل درجتين ويتأمل فيما أمامه بعينين لا تريان شيئاً، وعلت شفتيه الشاحبتين ابتسامة هازئة مريرة وقد بدا له كل شيء كريهاً كئيباً تعافه النفس.....

# التطوع للعذاب[٤]

انتهى الأستاذ حسان جلال - وهو محام تحت التمرين - من كتابة المذكرة القضائية - التي شرع ينشئها منذ الصباح الباكر - في تمام الساعة الثانية عشر وكان الجهد قد نال منه كل منال فأستند إلى ظهر كرسيه في إعياء ونصب. ومد يده إلى فنجال قهوة وارتشفه وهو ينظر إلى الأمام بعينيه يوشك أن يلتقي جفناهما. ودخل الخادم عند ذاك فأقبل على سيده وبصره بخطاب كان تركه على المكتب قبل ساعة وشاب مستغرق في عمله. فألقى عليه نظرة فاترة، وتناوله بغير اكتراث، ولكنه حين وقع بصره على الخط المكتوب به العنوان حدثت في وجدانه صدمه عنيفة مباغتة أرهفت حواسه وأثارت انفعاله وأقلقت باله، فالتمعت عيناه بنور خاطف وبدأ شخصاً جديداً. عرف الخط من أول نظرة فتأمله بدهشة وكأنما ينظر إلى وجه كاتبه في ضوء النهار، فلم يرى خطاً ولكن رأى وجهاً مستديراً كالبدر، خمري اللون، تدل قسماته الدقيقة على الأناقة والملاحة.

---

[٤] العدد ٣٨٢ - بتاريخ: ٢٨ - ١٠ - ١٩٤٠

وغشيه الانفعال ساعة لا يدري من أمره شيئاً. ثم جذبه الخطاب من العالم الداخلي الغارق فيه، ولكنه لم يطع لأول وهلة الدواعي الدفينة التي تهتف به أن يفض الغلاف، وأبقاه على يديه وجعل يديم النظر إليه في شغف ولذة وارتباك وخوف. وقد فرح به وحزن ورضي عنه وغضب. وتساءل في حيرة أيصح أن يطلع على ما فيه أم الأولى له أن يطرحه في سلة المهملات؟... على أنه كان يتساءل ويداه تفضان الغلاف بسرعة وتبسطان الخطاب. وما لبث أن قرأ مطلع الكتاب، وهو (عزيزي حسان) فلم يستطع أن يستمر في القراءة واستولت عليه خواطر وشجون، وأحس بخيبة لم يهون من شأنها أنه كان يتوقعها. كانت إذا كتبت إليه في ما مضى تبدأ خطابها فتقول: (حبيبي حسان) أما اليوم فأنها تتجنب هذه الكلمة الساحرة، ولعله دار بخاطرها ما يدور بخاطره الآن حين همت بالكتابة إليه فليس إبدال حبيبي بعزيزي بالشيء الهين، وإنما هو حدث من الأحداث وفجيعة من الفواجع. رباه... لماذا تراسله وتجذب أفكاره إلى واديها فتنكأ جرحاً في فؤاده أوشك أن يلتئم وتثير بركاناً كاد يخمد بين جوانحه؟ وتنهد من أعماق صدره وكر بعينيه الحالمتين إلى صفحة الخطاب، وألقى عليها

نظرة عامة، فأدرك إيجازها (التلغرافي) وأحس بذلك بكآبة خفية وانقباض صدر، وكأنه كان يرجو لو أنها أطالت وأسهبت. ثم قرأ ما يلي: (راودت نفسي مراراً على الكتابة إليك فكانت تتمتع وتتأبى حتى كدت أسلم لليأس بعد أن تقادم الفراق، وبعد أن نالني من تغاضبك ما نالني، لولا سؤال حيرني إدراكه فرأيت أن ألقيه عليك عسى أن يكون لديك الجواب عليه. أني أسأل لماذا هذا الجفاء؟ ولماذا هذا الهجران؟ هل دعت إليهما دواع معقولة؟... فإني أخشى أن يظل كلانا يتعذب لغير سبب. ..)

ورفع رأسه عن الخطاب وقد ثقل تنفسه ويبس حلقه. وحملق إلى لا شيء بعينين مظلمتين. يا له من سؤال! أليس يحق لها أن تسأل كما يحق له أن يسأل: لماذا هذا الجفاء؟... لماذا يتباعدان؟ لماذا يعانيان الآم والعذاب في صمت وعناد قرابة عام طويل وثقيل؟ آواه! كم كان يحبها وكم كانت تحبه! وأن آي ذاك الحب لتبدو لعينيه خلل الذكريات كما تبدو المشاهد الغارقة في الظلماء على ضوء المغنيسيوم فأنه ليذكر إخلاصها ومودتها وشدة وفائها، وكأنه كان يرى تألق عينيها حين تراه، أو يسمع تنهدها لدى قربه وعطفه. كانا يعيشان في غمرة الحب

ذاهلين عن كل شيء سوى أمالهما الناظرة، ومع ذلك قضى أن يتباعدا ويتفارقا ويذوقا مرارة الهجران والألم الجفاء؛ وكان هو البادئ ولعله كان الظالم. وعلى أي حال فقد استسلم للأوهام فلم تجد هي سبيلاً إلا أن تلوذ بالصمت والصبر. لماذا هذا كله؟... على أنه كان في تساؤله متجاهلاً متبالهاً. وكان بذلك عليماً فذكريات الأمس من القوة والعمق بحيث لا يمحوها اليوم ولا الغد. وقد دعت أشجانه إلى ذاكرته صورة أخرى عزيزة حبيبة طالما سكنت قلبه محوطة بالعطف والإجلال حتى أنتزعها القبر بقساوة ولم يترك له منها إلا طيفاً رقيقاً يجفل من ضوء النهار ومشاغل الدنيا ويتسلل في رفق إلى الذاكرة في فترات الأحلام والحنين. جاءته بوجهها الذابل المكال بالشيب ونظرة عينيها الحنونة، فتنهد حزيناً كئيباً وتمتم قائلاً: (أماه).. نعم هي أمه العزيزة التي قضى حبه إياها على سعادته وآماله، وفرق بينه وبين حبيبته وترك كلاً لوحدته وآلامه...

وارتدت عيناه إلى صفحة الخطاب تقلقان بين أسطرها التي اقتضبها الحياء؛ واختزلها الحذر والكبرياء، فلم يجد سوى هذه الكلمات: (سأنتظرك أصيل اليوم في مكاننا المعهود بالحديقة الأندلسية؛ فإن أنت أتيت لكي نصفي الحساب - أي حساب يا

ترى؟ - رحبت بك؛ وإن أنت أصررت على الجفاء فسيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد)

ويلي ذلك الإمضاء المحبوب: حسان. ج. وكان أول ما فاه به بعد تلاوة هذه الكلمات أن قال باضطراب: (أصيل اليوم في مكاننا المعهود) وأحس بدنو الموعد فاهتاج شعوره واضطرم صدره، ثم أستقر بصره على هذه العبارة: (فسيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد. فجفل منها وذعر، وأنقبض صدره؛ ألم يجعل فراق سنة هذه العبارة حقيقة واقعة!؟ أولم يكن يظن أنه نفض منها يديه إلى الأبد!؟. . . بلى، ولكن ذاك الخطاب رده إلى ماضيه بسرعة فانبعثت فيه حرارة كما تنبعث فيه حرارة كما تنبعث الكهرباء في المصباح بعد سريان التيار إليه. وضاق عند ذاك بمقعده بالمكان، فاعتزم مغادرة المكتب الذي يتمرن فيه وطوى الخطاب وارتدى طربوشه ومشى إلى الخارج. وفي الطريق أرتد خياله إلى الماضي يتعقب حوادث الأمس المنطوي. . . لا يدري بالضبط متى تعرف بإحسان وإن كان يشعر أنها تملأ ماضيه جميعاً، ذلك أنه لم يعتد مطلقاً عادة كتابة المذكرات، فسجلت ذاكرته الحادثات بنسبة تأثرها بها لا على حقيقة وقوعها، ولكنه يذكر بغير ريب أنه في صيف العام الماضي

سكنت أسرة إحسان في عمارة رقم ١٠ بشارع البستان بالسكاكيني، وأنه تعرف بالفتاة قبل أن يمضي شهر على نزولها بالحي الجديد. وقد جعلت المقادير حجرة نومها تجاه حجرة نومه، فتهيأت لكل منهما الفرص لتذوق صاحبه وتقدير مزاياه. وجذبته بادئ الأمر ملاحتها وأناقة قسماتها، فانجذب إليها ينشد الحب واللهو والعبث، وما يدري إلا وقد بهره ذكاؤها ورقة روحها وأنوثتها الناضجة، فأحبها الحب الصادق، وتعاهدا مخلصين أن يكون لها وأن تكون له ما أمتد بهما العمر. وشاركا المحبين حياتهم الهنيئة التي تطرد في هدوء بين المناجاة واللقاءات والوعود والآمال كأنها جدول صاف يشق حقلاً من بدائع الورود والرياحين إلى أن كان يوم عادت أمه فيه من إحدى الزيارات تكيل الذم لفتاة التقت بها لأول مرة في بيت جارتها. فدفعه حب الاستطلاع إلى السؤال والتحري فإذا بالفتاة فتاته دون غيرها، وإذا بأسباب غضب أمه عليها أنه دار حديث بين السيدات عن أعمارهن. ولما سئلت أمه عن سنها قالت: (كنت أبنه عشرين أيام الحرب) وكانت تعني الحرب الكبرى ولكن إحسان تساءلت بخبث تعقب على قول السيدة - وهي تجهل أنها أم حبيبها -: (حرب عرابي يا تيزة) وضحك

السيدات طويلاً وضحكت إحسان كذلك ولم تكن قالت ما قالت إلا بدافع الميل إلى الفكاهة، ولكن أمه لم تحتمل هذر الفتاة، وأحست بطعنة أليمة نغصت عليها صفوها

واستمع حسان إلى قصة والدته باستياء وغيظ وأسف وكان ينوى قبيل ذلك أن يعلن خطبته فاضطر إلى التريث مغلوباً على أمره، وعهد بإسكات ذاك الغضب إلى الزمن، ولما ظن أن ما كان من الأمر قد نسي وعفا أثره تقدم إلى والدته يحادثها في أعز أماني قلبه، ولكنه وجد منها ازوراراً وإباء، وكبر عليها جداً أن تستأثر بابنتها غداً التي أهانتها بالأمس، فرفضت الإصغاء إليه وأصرت على أن مثل تلك الفتاة غير جديرة به ولا كفء له وذهبت كل محاولته وتوسلاته لاسترضائها أدراج الرياح، وعجب حسان لغضب أمه أكان حقاً لتلك الدعابة المرة، أم لإشفاقها من احتمال تحول قلب أبنها الوحيد عنها إلى امرأة أخرى؟ أم كان لهذين معاً؟... ومهما يكن من الأمر فقد أسقط في يده وتوزع قلبه ألماً وحزناً بين أمه وحبيبته، وكابد فترة من الحياة مليئة بالقلق والعذاب، موزعة بين الألم والضجر واليأس والخنق. ثم أعلن ما كان سراً وافتضح ما كان خافياً، فصار عداوة صريحة بين أمه وخطيبته تحدثت بها ألسنة الحي

جميعا.ٍوأنها لعلى شدتها وقوتها إذ أحست بالمرض فجأة فلزمت الفراش ثلاثة أيام ثم انتقلت إلى جوار ربها في اليوم الرابع، ووقع عليه الخبر بعنف وشدة؛ ففزع وهلع وتقطع قلبه ألماً. كان يحب أمه حباً كبيراً؛ وقد هاج الفراق الأبدي الحب المتغلغل فاختنق بالعبرات وأظلمت الدنيا في عينيه...

ووسوس له قلبه بخاطر زاد من ألمه، قال عسى أن تفرح إحسان لموت أمه وقد كانت تعدها عثرة في سبيل سعادتها؛ فما من شك في أنها سعيدة مغتبطة وإن تظاهرت بمشاركته حزنه. وألمه هذا الخاطر ألماً عميقاً وزاد من وقعه أن سمع من حوله يتهامسون به فانطوى على الحزن والغضب ورأى قبر أمه العزيزة يقوم حائلاً منيعاً بينه وبين الفتاة...

فهجرها فجأة وامتنع عن الرد على رسائلها وانغمس في الكآبة والأحزان ومكابدة الآلام والأشواق زائغ البصر بين ذكرى أمه وذكرى سعادته حتى تعود على الألم وألف التصبر والتجلد وظن أنه يتناسى الماضي بهمومه وآلامه أو أنه نساه بالفعل ازدحمت هذه الذكريات برأسه في طريق العودة إلى البيت ولكنها لم تصحب بعواطف في مثل مرارتها وحزنها إذ كانت الذكريات تمر برأسه أخيلة مجردة عن عواطفها واحساساتها.

أما وجدانه فكان كله مستغرقاً في أثر الخطاب والموعد. لذلك انصرفت نفسه عن الغذاء، وعز النوم على جفنيه وحامت أفكاره حول فتاته فتمثلها أمامه بقدها الممشوق ووجهها البدري وكأنه كان يسمع رنة صوتها، ويشم رائحة (سوار دي باري) التي تتعطر بها، فانفعل انفعالاً شديداً نبا به عن الطمأنينة. ولم يكن قر رأيه على شيء ولا بت في المسألة برأي، بل كان يحاذر من مواجهتها مواجهة حتى لا يقطع فيها برأي ينغص عليه أحلامه أو يميل بها إلى حل يثير كوامن أحزانه. حتى إذا وافى الأصيل وجد نفسه يغادر البيت ويقصد إلى قصر النيل مستسلماً لتيار عنيف لا يتنكب عن طريقه ويأبى أن يقر بالاستسلام. ولكنه ألفى نفسه أمام ما يحاذره حين عبر الجسر، وطالعته الحديقة الأندلسية بخمائلها المعشوشبة ومدرجاتها السندسية، هنالك أحجم عن التقدم وانعطف إلى يمينه يساير النيل مضطرباً حتى حجبه سورها الحجري ثم أستند إليه متريثاً وقد لفته الحيرة والاضطراب ولبث في جمود تام، وكانت أفكاره تنجذب بشدة نحو تلك التي لا يفصلها عنه سوى السور الحجري. وسرى في ملمسه من الحجر البارد تيار حار متدفق، فخفق قلبه بعنف وكاد يتحول إلى الباب مندفعاً

وفي تلك اللحظة الفاصلة أرتد خياله - فجأة - إلى بعض حقائق الماضي الأليمة، فبردت حماسته وهبطت حرارته وانتكس انتكاساً غريباً أحس من جرائه يخجل واستحياء وألم فجعل يتساءل مغيظاً محنقاً: كيف حملتني قدماي إلى هنا! ولم يلبث أن احتدم بقلبه الغضب وخال أن إقدامه على الذهاب إلى هناك عيب حقيق بأن يجعله ضحكة للضاحكين والشامتين وهز منكبيه باستهانة وانحدر في الطريق الضيق مبتعداً عن الحديقة، ولم يعتوره التردد سوى مرة واحدة وقف عندها قليلاً والتفت وراءه ثم أستأنف المسير بعزم وبأس، ولم يكن يملأ فراغ خياله حينذاك سوى صورة أمه... وهكذا خان عهد سعادته ليكون وفياً لذكرى أمه، وكثيرون هم الذين يعانون الآلام والمتاعب في سبيل ما يتمثل في نفوسهم من الأوهام.

# فتوة العطوف[٥]

عند هبوط المساء غادر المعلم (بيومي) الفوال نقطة بوليس الحسينية يحمل (إنذار التشرد)، يكاد يتصدع صدره من الغضب والغيظ. وكان يرغي ويزبد ويتمتم ويدمدم بأصوات كالخوار، خشنة مبهمة، ما زالت تعلو وتميز كلما باعدت الخطأ بينه وبين نقطة البوليس، حتى صارت في ميدان فاروق لعناً وسباباً وقذفاً صريحاً مخيفاً عنيفاً. وجعل يهز قبضة يده الغليظة في الهواء مهدداً متوعداً، ويدير في الفضاء عينين يتطاير منهما الشرر صيرهما الغضب كجمرتين ملتهبتين. فوقع بصره على (تاكسي) واقف بالميدان، فقصد إليه، ورآه السائق - وكان يعرفه - ففتح له الباب، فأندفع إلى الداخل وارتمى إلى جانبه. وأحس السائق بالثورة المضطرمة في صدر صاحبه، فسأله عما يقلقه، ووجد المعلم في السؤال متنفس عن صدره، فرما إليه بالإنذار وهو يصيح غاضباً: (أنظر كيف تعاملني الحكومة السنية!)، وشبك يديه على صدره وقال بلهجة تدل

[٥] العدد ٣٨٣ - بتاريخ: ٠٤ - ١١ - ١٩٤٠

على السخرية والحنق: (ألا ترى أنه يحتم عليَّ أن أجد عملاً في ظرف عشرين يوماً، أو يزج بي في السجن مره أخرى؟ ما شاء الله!). وأشتد اكفهرار وجهه، وأرسل من تحت حاجبيه الكثيفين نظره شريرة، وكان صاحبه ساهماً متفكراً يردد ناظريه بين وجه المعلم المكفهر والإنذار المبسوط بين يديه وكانت هيئة المعلم بيومي من الهيئات التي لا يمكن أن تقتحمها العين، أو تمر بها دون التفات إليها، لأن صورته كانت حافلة بآي القوة والجسارة. نعم كان مظهره الرث وملابسه البالية القذرة تنطق بما هو عليه من فقر وبؤس، ولكن هيكله الصلب وصدره العريض وعضلاته المفتولة دلت على القوة والبأس، ونظرة عينيه وإيماءاته توحي بالكبرياء والعنف، وتلك الندوب تكتنف وجهه وجبينه، وآثار من طعن سكين في صفحة عنقه تثبت أنه خاض معارك عنيفة شديدة الهول، ولذلك أحاط به في غضبه صمت رهيب ألزم ألسنه الأقربين من سائقي (التاكسي) الجمود الثقيل. وقد التفت إلى صاحبه وقال في غيظ وحنق: (أنا. . . أنا بيومي الفوال. تتنكر لي الدنيا إلى هذا الحد؟!) وكبر عليه الأمر فجعل يضرب كفا بكف ولسانه لا يكف عن القذف والتهديد، وأكثر من القذف والتهديد. وقليلاً

ما كان يحرك لسانه ساعة الغضب فيما مضي من زمانه. فكان إذا غضب انطوى على الغضب حتى ينزل عقابه الصارم بعدوه، ولكن لم يبق له من ماضيه ذاك إلا ذكريات تطوف بين الحين والحين برأسه المثقل. فتنشر في ظلماته ضياء منيراً مقتبساً من عز الماضي ومجده وسلطاته

كانت نشأة المعلم بيومي في العطوف. وقد شهد صباه الأول على جسارته الطبيعية، فكان من خيرة صبيان الأعور (فتوة) العطوف الذي أرهب السكان وأعجز رجال الأمن. يجلس بين يديه يستمع إلى قصص مغامراته ويشهد مشاجراته ويخرج في مؤخرة عصابته إذا نفرت لقتال عصابات الدراسة أو الحسينية عند سفح المقطم، يحمل في حجره (الزلط) (وقطع الزجاج) يمد بها المتعاركين من قومه ويلاحظ فنون قتالهم عن كثب ويمتلئ حماسة للقتال وأعمال الجرأة فما شارف الثامنة عشرة حتى أشتد ساعده وانفتلت عضلاته، ومهر مهارة عجيبة في الضرب (بالروسية) والعصا والسكين والكرسي؛ واشترك في معارك فردية وجماعية فأبلى فيها أحسن البلاء. وذاع أمره كمتعارك شديد المراس، يقدم على مقاتلة عشرات الرجال بقلب لا يهاب الموت، ويدمر مقهى كاملاً إذا حدثت النادل

نفسه بمطالبته بثمن مشروب، وأكبر الأعور فيه هذه الصفات فاصطفاه وآخاه وجعله ساعده الأيمن، وقاسمه الغنائم والأسلاب. ومات الأعور فخلقه على أريكة (الفتونة) دون شريك. وأبى طموحه عليه الهدوء والراحة؛ فتحدى فتوة الحسينية وظهر عليه، وقاتل فتوة الدراسة فهزمه، وخرج بمجموعة إلى الوايلية فأذل كبيرها ومزق جموعه شر ممزق، ودوى أسمه في تلك الأحياء دوى نذير الغارات، واستكانت له نفوس الفتوات، وأفاد من سلطانه فائدة رمقتها عيون الجسد جيلاً طويلاً. فجعل مركزه قهوة غزال بالخرنفش حيث يجتمع بأنصاره وصبيانه. وفرض الآتاوة على كبار الأغنياء والتجار والقهوجية وشركة سوارس يؤدونها إليه صاغرين، ومن يتردد عن دفع ما يطلب منه عرض نفسه وما يملك للهلاك المبين. هذا غير ما كان يؤجر له من أعمال الانتقام والتهديد وحماية بعض النسوة من أهل الهوى، وتنافس كثيرون في التودد إليه بإهدائه الهدايا الثمينة، فكان يتقبلها تقبل الزاهد فيها وهو من غير الشاكرين وعاش المعلم بيومي في ظل سلطانه عيشة راضية في بلهنية ونعيم. يلبس الجلباب الحرير والعباءة من وبر الجمل، ويتلفع بالشال الكشمير الفاخر ويركب الدواكر تجره

الجياد المطهمة. ثم عشق (عالمة) فتزوج منها وكان فرحه فرح أهل الجمالية والعطوف والدراسة جميعاً، وانتظمت (زفته) الفتوات من جميع الأحياء وعدداً عديداً من أصحاب (السوابق) وحاملي الإنذارات والمترددين على السجون. . . وأحيا ليالي العرس الشيخ ندا وعبد اللطيف البنا وبمبة كشر. ثم مازال يعلو نجمه يوماً بعد يوم حتى تسنم ذروة المجد في الانتخابات الأولى عام ١٩٢٤. فقد أقر بنفوذه كثير من رجالات السياسة في مصر وسعوا إليه يرجون نصرته لهم ويساومن على شراء أصوات أنصاره وأتباعه، وشهدت قهوة غزال محضر باشوات وبيكوات يجلسون إلى المعلم بيومي الفوال متوددين متحادثين. وكان المعلم لهم ويستولي على نقودهم، ولكنه في يوم الانتخابات ذهب وصحبه إلى أقسام البوليس يعطون أصواتهم لمرشحي سعد زغلول

ومنذ ذاك العهد وهو يسمى أولئك الباشوات والبيكوات (بالكروديات) على أنه كان يباهي باتصالاته بهم في أحايين كثيرة فيقول في أثناء حديثه (وقال لي الباشا كيت وكيت) وقلت للباشا كيت وكيت تلك أيام خلت. . . وخلفت وراءها دهراً قاسياً شديد الظلمات. فما يدري أولئك الفتوات إلا والبوليس

يضيق بهم ذرعاً ويشمر للقضاء على أعمالهم، وكان من سياسته أن قذف الحسينية بضابط شاب لم تشهد الداخلية له من قبل نظيراً، سواء في قوته أم في شجاعته وشدة عناده. وكان يعلم أن هدفه الأول هو المعلم بيومي الفوال، فلم يحد عنه، ولم ينتظر الأدلة القانونية لأنه كان يعلم أن أحداً من الناس لن تواتيه شجاعته على الشهادة ضده. فهاجمه بجنوده بغتة وقاده إلى النقطة وأمر الجنود بضربه ضرباً مبرحاً. وأصيب المعلم بذهول شديد لذلك العدوان الجريء. فما كان من الضباط إلا أن أعاد الكرة مرة ومرتين حتى كسر شوكته. ثم جعل يسوقه أمامه محاطاً بجموع الجند الشاكي السلاح يصفعونه في كل منعطف طريق، ويركلونه أمام كل قهوة وينزلون بمن يظهر لهم من فتيانه أشد العقاب، فأفاق الناس من غشيتهم وانحلت عقدة الذعر الممسكة بألسنتهم فهرعوا إلى رجل الأمن يشكون ويستعدون، ووجد الرجل الدليل الذي يطلبه وزج بالمعلم في غيابات السجون يذوق أشد الأهوال والآلام. وهكذا أخذ المعلم بالإرهاب الذي أخذ به الناس جميعاً. وقضى في السجن بضع سنين. ولما فارقه لم يجد أحداً من الفتوات في استقباله يهنئه ويقول له:

(السجن للجدعان) فقد لاذ كل منهم بسبيله، منهم من سجن، ومنهم من هجر الحسينية، ومنهم من راض نفسه على العمل كما يعمل الناس جميعاً سعياً وراء الرزق. فألفى المعلم عالمه مهجوراً كئيباً، ومجده ذكرى أليمة لا يترحم عليها إنسان، حتى زوجه ضاقت بفقرة وتسولهٍ فهجرته وعادت إلى بنات فنها في شارع محمد علي. وطحنت الآلام تلك النفس الجبارة العاتية. وترنح صاحبها تحت أثقال الهموم لا يستطيع أن يجأر بصوت الشكوى خشية عيون البوليس المحدقة به من كل جانب، وظل على حزنه وألمه حتى تلقى إنذار التشرد الذي يخيره بين العمل أو السجن

طافت برأسه - في ساعة بؤسه تلك - صور من أيام مجده تراءت راقصة أمام ناظريه خلل أغشية الحزن والألم. وكان صاحبه السائق في تلك الأثناء يراقبه بطرف خفي وأصابعه تبعث بالإنذار الذي أحدث كل ذاك الغضب. وكان يدير أمراً هاماً في عقله. فلما قلبه على أوجهه المحتملة التفت إلى المعلم وسأله:

- ماذا تقول يا معلم لو عرض عليك عمل يدفع عنك غائلة البوليس؟...

وحدجه المعلم بنظرة غريبة دون أن يفوه بكلمة. وتشجع السائق يصمته فاستدرك قائلا:

- سبق أن علمتك قيادة السيارة. وهي صنعة في اليد تعمر بيوتاً، وما من شك في أنك خبير بالطرق والمواصلات وأستطيع أن أدلك على عمل في (الجراح) الذي أعمل فيه على شرط أن تتنازل وترضى. . . فما رأيك يا معلم؟

ولم يسارع المعلم إلى الفرح كما ينبغي لأي رجل في مكانه، لأن العمل كان التجربة الوحيدة التي لم يعرفها، وهو لم يكن شيئاً عظيماً قط في نظر الفتوات المحترفين، فتوجس منه خيفة، ولكنه لم يكن في حالة يستطيع معها رفض ما يعرض عليه مادام العمل هو المنقذ الوحيد له من السجن. فقال لصاحبه بلهجة لم تخل من الامتعاض: وهل من الممكن أن ألحق بهذا العمل قبل مضى العشرين يوماً؟

- يغير شك ولا ينقصك إلا شيء واحد. فتساءل المعلم قائلاً:

- ما هو؟. . .

- بذلة يا معلم، لأنه لا يمكن أن تكون (شوفيراً) بغير بذلة. فاشتر بذله أو أجرها أو أستعرها كيفما أنفق. ولكن لابد من بذلة ومال إلى التفكير في الأمر تفكيراً جدياً ووجد نفسه يحاول

حل مسألة العثور على بذلة. ولكنه لم يدر له بخلد أن يجد ضالته عند صاحبه السائق أو عند أحد من أقرانه، لأنه كان يعلم أنهم لا يملكون سوى البذلة التي يلبسونها. على أنه لم ييأس لذلك من العثور على بذلة. فعليه بالأفندية الذي كانوا إلى عهد قريب يتقون أذاه ويرجون خيره، فلا يمكن أن يضنوا عليه ببذلة قديمة ناطت الأقدار باقتنائها قوام حياته. واعترض على أولئك الأفندية سلبهم وطرق أبوابهم ورجالهم بلهجة غير التي ألفوا أن يسمعوها منه، أن يتنازلوا له عن بذلة قديمة، ولكنهم ردوا عليه بأوجه من الأعذار لا تفند، فقال فريق إنهم لا يملكون سوى بذلة واحدة غير التي يلبسونها، واعتذر فريق آخر بسوء الحال وكثرة العيال ووطأة الأزمة. وقال واحد بقحة إن خادمه أحق ببذلته القديمة. وعجب المعلم لأولئك اللؤماء واهتاجه الغضب اهتياجاً شديداً وقال لنفسه بإصرار وعناد (ما دامت البذلة تنقذني من السجن فسأحصل عليها مهما كلفني ذلك من العناد) وكان يتخبط في الطريق على غير هدى حين وجد نفسه اتفاقاً أمام دكان كواء عند مبتدأ شارع السبيل، فألقى عليها نظرة سريعة لصقت بالبدلة المعلقة، فتراخت ساقاه عن المشي وأسند ظهره إلى

شجرة قريبة ومضى يتفرس في البدل المتراصة تفرس الجائع المنهوم في فرن الحاتي المليء بالشواء من اللحوم، ثم عاين المكان فرأى الدكان قائماً إلى جانب جراج تحدهما من الخلف صحراء العيون. ودارت برأسه خواطر محمومة عنيفة وعزم عزماً أكيدا وأصبح الصباح وجاء الكواء يفتح دكانه فما راعه إلا أن رأى في ظهرها ثغرة فانخلع قلبه وهرع إلى ثياب زبائنه. ووجدها كاملة إلا بدلة واحدة. . . فكانت دهشته قدر انزعاجه!

وصار المعلم بيومي سائق تاكسي ولم يعد لضابط نقطة الحسينية من سلطان عليه، ولأمر ما أختار الجيزة ميداناً لعمله فاراً بالبذلة التي لم تهده الحيلة إلى صبغها أو قلبها كما كان ينبغي أن يفعل اللص الماهر. وما كان يصبر على نظام العمل لولا أن السجن كان عودة على ما هو أشد إيلاماً ومقتاً، فرضي كارهاً أن يلبي النداء ويحمل الراكبين، ويبدي احترامه لمن كان بالأمس ينظر إليهم شزراً ويدعوهم (بالكرديات). . .

ولم تخل حياته في ذاك المهجر من حوادث، ففي ذات أصيل وكان مضى عليه ما يقارب الشهر في عمله. وكان ينتظر في موقفه برز رجل وجيه من باب الفانتزيو وناداه ولبى المعلم مسرعاً وترك مقعده ليفتح الباب للسيد الوجيه ومضت

دقيقة وهو ينتظر والرجل لا يتحرك، فعجب المعلم للأمر ونظر إلى الرجل فرآه ينظر إليه بإنكار بل رآه ينعم النظر في بذلته وخفق قلب المعلم. واضطرب وأحس كمن وقع في فخ، وهم بالتحرك ولكن الرجل دنا منه وأمسك بالياقة بسرعة وثناها ليقرأ اسم الطرازي ثم قبض على ذراع المعلم وصاح به بغضب:

- قف يا لص... من أين لك هذه البدلة؟

ونادى الشرطي بصوت عال. فحدجه المعلم بنظرة نارية وكان يستطيع بغير شك أن يبطش به لو أراد، ولكنه استشعر بأساً غريباً خرج به عن وعيه فما يدري إلا والشرطي يقبض عليه... والظاهر أن الحظ الذي حالفه قديماً تخلى عنه إلى الأبد، وإنه ليعاني الآن السجن؛ والله وحده يعلم ما هو صانع به بعد ذلك.

# عبث أرستقراطي[٦]

في ذلك المساء من شهر مارس أزيَّن قصر الوجيه حامد بك عرفان بحلة لألاءة من الأنوار المتموجة ذات الألوان، مدت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج. وتعلقت بأفرع الأشجار والنخيل، وتوجت بها شجيرات الورود المنتشرة على هيئة أهلة ونجوم. وكان أعجب ما في القصر هو ذاك البهو المتسع الأنيق الذي فرش بفاخر الأثاث وحليت جدرانه وأركانه بروائع الفن من صور وتحف، وترك في وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين، أما في صدر المكان فقد امتدت ردهة إلى مقصف حافل، وإلى يمينها فيما يلي الشرفة المطلة على الحديقة احتلت فرقة الموسيقى الإيطالية مكاناً جميلاً... وانتشر فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوات والمدعوون الذين لبوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجيه عرفان بك وزوجه أنجي هانم عرفان... كانوا يجلسون أزواجاً وجماعات يتجاذبون

[٦] العدد ٣٨٧ - بتاريخ: ٠٢ - ١٢ - ١٩٤٠

أطـراف الأحاديـث حينـاً بالعربيـة وأحيانـاً بالفرنسـية ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق. وقد شاع في الجو عطر وأنس وحرارة كأنها أنفاس المودة نفثتها الأعين والشفاه والصدور والأماني الهامسة وكانت الأحاديث متنوعة، ولكنها تدور في الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يُستثني من ذلك الجماعة التي كان محدثها الأول الأستاذ على الجميل الصحافي المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة، وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة. أما الوجيه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروي فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية في العواصم العالمية ذوات الشهرة في الحب والجمال؛ وفي ركن منعزل امتاز وفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوات واتجهت أبصار المحكمات والمحكمين إلى امرأة اتخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها (لفيجيه لوبرين)، وكانت عجوزاً إلا أنها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال ما تظن أنه يغني عما استرده الدهر من حياة شبابها، فبدت تحت

طلاء الأصباغ في هيئة مضحكة، وكانت تتجنب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتى تعود إلى مجالستها ربة الدار أنجي هانم كلما تاقت نفسها إلى الراحة. أما اسمها فدولت هانم وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفقة، وكادت تيأس من الرجال والحب وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس فصارت معجماً لتواريخ السوء. وكانت في تلك اللحظة التي اختيرت فيها سراً ملكة للقبح... تجالس أنجي هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسراً بعد أن لم تبق على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتى أتيحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجيه الأستاذ محمد جلال المحامي وزوجه الحسناء صفية هانم جلال. وكانا يلفتان الأبصار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدان في الصعيد، وجمال الزوجة ورشاقتها، وقد استقبلتهما أنجي هانم بمودة ظاهرة وباطنة، ولما عادت إلى جوار دولت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

- يا لهما من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيدة بحماس:

- الأستاذ جلال شاب يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثري... ألا تعلمين أنه مرشح لكرسي النيابة؟... وأما صفية فهي آية للجمال والصفاء...

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

- نعم، نعم... لا شيء يعيبه إلا أنه يقال إنه قد يتبارز من أجل راقصة، أما إذا استثيرت غيرته الزوجية فقد يغضي...

وضاقت أنجي هانم ذرعاً بحديث صاحبتها، فلم تسألها إيضاحاً وتشاغلت عنها بمشاهدة بعض الراقصين، ثم استأذنت لاستقبال بعض صواحبها...

وسلم الأستاذ محمد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات، ثم اختار أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلهما هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسناء هدى هانم العارف، وكان الأستاذ جلال يبدي إعجاباً خاصاً نحو السيدة هدى. فلما عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك...

وطرب الجميع طويلاً وشربوا كثيراً، فدارت رؤوس وثرثرت ألسنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتلأ الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتقت أعين

وتماست أنامل وارتعشت شفاه. . حتى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسطت المدعوين السيدة أنجي هانم وقالت بصوتها الرخيم:

- اسمحوا لي سيداتي وسادتي أن أقدم إليكم مفاجأة العيد السعيد

وتطلعت الوجوه إليها من كل صوب وتجمع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثم أضيئت الأنوار مرة أخرى فرأى القوم منظراً بديعاً. . . مهدا على قوائم أربع طويلة، مسقفاً بستار من حرير على هيئة هرمية، وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين في قميص أبيض كأنها وردة بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصفق الجميع تصفيقاً رقيقاً وهتفوا باسمها، وقبل الآنسات يدها الصغيرة، ثم قدمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشد نزوعاً للصبا والمسرة. على أن فترة الظلام القصيرة لم تمر بسلام كما

توهم الجميع. فقبيلها بدقائق كان الأستاذ محمد جلال يجالس هدى هانم في المقصف وقد دل عبثهما المرح على أنهما ثملان، فلما أطفئت الأنوار لم يتردد الشاب فدنا برأسه منها حتى كادت تمس شفتاه أذنها وهمس قائلاً: (هدى) وارتجفت المرأة كالمذعورة ولم ترد عليه فقال لها همساً وهي تحس بلمس شفتيه لأذنها: (هذه فرصة طيبة. قومي واتبعيني)

وكان بودها لو تتباله كما يقضي الدلال ولكنها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همساً:

- إلى أين؟

- إلى حجرة التدخين في الطابق العلوي!

- قد يفتقدوننا

- وماذا يهم!... سيظنون أننا في الشرفة أو في الحديقة أو في المقصف أو هنا أو هناك، وسنعود من طريقين متباعدين...

وأمسك بكفها وقام واقفاً فقامت بدورها، واتجه نحو السلم وهي تتبعه، وارتقياه بسرعة، فوجدا نفسيهما في ردهة مضاءة بنور بنفسجي هادئ، تطل عليها أبواب متباعدة، فساروا إلى هدفهما ودخلا معاً ثم ردا الباب في سكون، وكان الجو مظلماً شديد الظلمة، ولكنه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين



obeikandl.com

وتقدما خطوات، حتى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة، فجلس وجلست، وتنهد من أعماق صدره، وقبض على كفها فوجدها ترتعش كالمقرورة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزاً لم يبرأ منه حتى ضمها إلى صدره بعنف وانهال على وجهها يقبله بشغف وجنون، كم لبثا منفردين؟ إنه لا يدري ولكن المحقق أن تلك الخلوة السعيدة لم تخل مما ينغصها، فقد خيل إليهما أن أقداماً خفيفة كالمحاذرة تدنو من باب الحجرة، فتباعدا قلقين وأرهفا السمع واتجهت أعينهما في الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هذا أن يداً تعالج الباب بلطف... ترى أحق هو أم وهم!؟ ولكن الباب تحرك ونفذ إلى الحجرة شعاع هادئ كروح محتضرة، فاشتد بهما الرعب وودا لو تبتلعهما الأرض، وما لبث أن تسلل شبح في حذر وتبعه آخر، ثم رد الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرة أخرى، وكان الداخلان شديدي الحذر فلم يبديا حركة، ولم يصدرا أصواتاً، وكأنهما ذابا معاً في الظلمة الجاثمة... فسكن ذعر الآخرين وأحسا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معاً هي أن الضيفين الجديدين مثلهما وأن لا خطر عليهما منهما، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزة تصيب الكنبة فعلما أن صاحبيهما

اختار كنبتهما مقعداً لهما أيضاً، وتريث في قلق صار بعد حين ضيقاً وكدراً لأنهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن يتنبه الآخران فيفزعا، وربما حدث ما لا تحمد عقباه!

أما الجديدان فكانا يظنان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يحاذرا إلا مقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همساً وهمهمة وأن يسمعا الرجل يهانغ صاحبته وهي تهانغه ولم يكتفيا بذلك، بل قال الرجل بصوت استطاع الآخران أن يميزاه: (حبيبتي... صفية...) وارتجف محمد بك جلال كأنما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره، وأحس بارتجاف يد صاحبته في يده... كان الصوت صوت طه بك العارف... ومن هدى؟ أليست زوجه هو!... أي كارثة تجمعت في هذه الحجرة المظلمة! ودق قلبه بعنف وغلى دمه غلياناً كاد يفجر الشرايين في دماغه، ولكنه لبث ساكناً صامتاً وزوجه على قيد ذراع منه في أحضان خليلها! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل - فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرية بالقضاء على مستقبله السياسي ومعركة الانتخابات على الأبواب - ولكنه كان مغيظاً محنقاً لأن غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أن زوجه بين يديه هو أيضا...

وانتظر دقائق كالأجيال، وشعر أخيراً بحركة استدل بها على قيام الرجل وسمعه يقبل زوجه بحرية ويقول لها: (لو تعدل الدنيا... فزوجك الغبي ليس أهلاً لك وزوجتي ليست أهلاً لي. ولكن ما العمل؟!)... ثم تسللا خارجين كما أتيا...

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجاً، وبحث عن سترته حتى عثر عليها وأخذ بيد صاحبته وخرجا في حذر ثم افترقا في الردهة...

ولبث ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهترة ولم تكن هذه أولى خيانتها، ولكنها وقعت على كثب منه بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة فسحقاً لهما!... وقام يتمشى في الحديقة فاراً بوجه الممتقع من الأعين جميعاً فؤاده المضطرم. وصح عزمه في تلك اللحظة على أن يسلم قياده لمغامرات الغرام الجنونية غير مبق على شيء ولو أدى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامة وميادين السباق. وتملقته هذه الخواطر فأحس بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبه إلى نفسه فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغير غريب، فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، وبحث عن أسباب هذا التغير فوجد يديه تجسان السترة وكأنها أوسع مما كانت...

ماذا حدث لها؟ يا للعجب... إنها أوسع مما يتصور. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكي يتحقق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوباً عليها (طه بك العارف).

ووضح الأمر، وعاوده القلق والحنق، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة، فسترات بدل السهرة متشابهة، ولكنه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: (كيف يمكن أن تتبادل السترتان؟!)

obeikandl.com

# الحب والسحر[٧]

انتهى من فرش شقته - أو حجرته إن أردت الدقة - لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة، وكان الأثاث في غاية البساطة كذلك لا يعدو الفراش الخشبي الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها. وهذه الشقة هي الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالوايلية. هداه إليه أهل الخير، فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب، واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن فرضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها. .

.

واستقبل الحياة في البيت الجديد بنفس راضية، وعلم أن صاحبته تدعى (أم فردوس)، وأنها أرملة أسطى عربجي كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد

[٧] العدد ٣٩٣ - بتاريخ: ١٣ - ٠١ - ١٩٤١

السمنة: كالمفتقة والمغات وبعض التركيبات الأخرى؛ ثم هدايا الأسر التي تعمل بها: (كبلانة) أو (خاطبة). وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية، تصبغ شعرها بالحناء، وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية؛ وكانت قسماتها مقبولة، ولكن صوتها خشن جهوري، السب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب في الحي كله. وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته في البيت: ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً؟... وأين هي؟ هل تقيم معها في البيت أم أنها في بيت زوجها؟... وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا، وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً، ففي صباح أحد الأيام، وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة في السادسة عشرة مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط في تؤدة حاملة حقيبتها، فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق، وقد التقى بصره ببصرها وهي تعاينه بعين يعلوها الارتباك، ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه خافت قائلة (صباح الخير) فقال لها بلهجته الريفية القحة (صباح الخير).. ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق، ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء، ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها

ومضت. . . ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس؟. . . رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له، وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون، سوداء العينين والشعر، ناهدة الثديين. . . فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن، وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها: غليظة، تسعى في الأسواق ملتفة بالملاءة اللف، فإذا به يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين. . . فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين، وولول قائلاً بلهجته الريفية: (وي وي يا بوي). . . ولذ له أن يعيش في بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة، ولكنه كان قليلاً ما يسد برؤيتها بخلاف أمها التي كانت تقوم بتنظيف شقته، وتجالسه في أوقات الفراغ، وتحدثه - بمناسبة وغير مناسبة - عن شئون مختلفة وعن أناس كثيرين من الجيران، وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم!. . . وأنه يملك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة، وانه التحق بمدرسة الصنايع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها في شيء من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه باهتمام وانتباه وكانت تتمثل الفدانين

والجاموسة والمهندس الشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء... ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الأجش... وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيراً وزبدة يهدى إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً...

وفي من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته قائلة:

- والنبي ياسي حماد تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج. ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً في الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الذي اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار في المدرسة الثانوية وإجباره على اختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التي كان على استعداد لأن يجود في سبيل الالتحاق بها ببيع الفدانين والجاموسة. ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس، ووجد الفتاة وكأنها في انتظاره وكانت ترتدي فستاناً أنيقاً، وترسل شعرها الأسود في ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها. فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب، وقالت لها أمها: إن (حماد

أفندي قبل أن يدرس لها الحساب) وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهة لأعمالها التي لا تنتهي، وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء، ولكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه. وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً: (فاهمة؟) فتهو رأسها بالإيجاب سواء أكانت فاهمة أم غير فاهمة. ووجد حامد في هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس، وكان يجذبه إليها ما يجذب فتى مثله في فورة الشباب إلى فتاة في نضوجها وحسنها انطوى عليهما بيت واحد، وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعي ولكنهما لم يتقدما قي علاقتهما عن أول يوم التقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً (خاماً) وكان يقنع بأن يقول لها صباح الخير أو مساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم، أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام. وكان كثير الحذر في التعبير عن شعوره خشية تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد. . .

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته، حتى كان صباح جمعة، وكان من عادته أن يمضي صباح الجمعة خارج البيت إلى ما

بعد الصلاة؛ وكان يقطع حارة دسوقي في طريقه إلى شارع الملك فألتقى بأم بخاطرها الغسالة وهي ملتفة في ملاءتها القذرة كغرارة الفحم، وكانت تغسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينها وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية في الغرابة، فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت:

- ياسي حماد أنا أرغب في مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذي أراد بك كل خير... تعال أحدثك حديثاً يهمك...

وانتبذت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول:

- أنت شاب طيب القلب لا تدري من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة... أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل في الإيقاع بك...

فبوغت الشاب بهذا القول وأخذه العجب وسألها في ارتباك ظاهر: (أي إيقاع بي تعنين!)

فقالت المرأة وهي تخافت من صوتها:

- ابنتها؟... ألا تفهم؟... ابنة العربجي... فردوس التي تسير في الطريق عارضة ردفيها وساقيها لكل من رأى، فلا هي من مقامك

ولا مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين. . . فاحذر ثم أحذر، إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين. .

وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهها بارتياح ثم أدنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول:

- لقد أخذت منديلك خفية وأعطته للشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدري شيئاً والسحر في فعله، والبخور في عمله، وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار.

فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه. . . ولم يكن خالي الذهن من هذه الأمور، ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتساءل متجاهلاً عواطفه مظهراً عدم اكتراث.

- وما عسى أن يعني هذا؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

- هذا يعني كل شيء يا مسكين؛ هذا الذي أوقع المرحوم الأسطى شلبي من قبل. واعلم أنها دخلت في العميق، وحصلت على حجاب رهيب تحت حشيّة سريرك، وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتله صباح كل جمعة على فراشك وهي تثابر على

ذلك أسبوعاً بعد أسبوع، فأفسد عليها عملها الشيطاني، وانج بنفسك... والآن وقد حذرتك، فإني تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب...

وسارت المرأة في سبيلها، ولبث هو في مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التي تدور من حوله وهو عنها غافل... رباه! أسحر وبخور وشياطين؟!... أكل هذا ليتزوج من فردوس؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولكنه أحس لذة خفية وفخاراً، ثم تساءل: هل يستمر في طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث في غرفته؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب موارباً كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً، ترى هل هو مغلق بالمفتاح؟ وهل فردوس حقاً بالداخل؟ ثم صعد بصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب في حذر فانفتح، فخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل، ثم دخل ورد الباب بهدوء، وهنا اقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم) ولكن

شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل في ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نامة فانحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبه في هدوء إلى سماء الغرفة، واستطاع أن يرى سريره بوضوح... رباه.. لم يكن خالياً... كانت فردوس تتربع عليه في ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك صلاة، ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق في النظر وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية؛ ولبث ينظر إليها في سكون ودهشة، وكان يجد قلقاً غريباً، ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جعل يراقبها أخيراً في شغف ثم رآها تثني حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها، ثم رآها تتمدد على ظهرها في هدوء وهي تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوسادة وتضعها عليها بالطول، ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت في سبات عميق، وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا من أجلي أنا؟!... أكل هذا لكي تتزوج مني أنا... واطمأن إلى المنظر الغريب ووجد في مراقبته لذة لا تعادلها لذة؛ وأحس تخديراً ود

لـو لـم يصح منـه أبـداً. وتـدفق الحنـان مـن حنايـاه فتمنّى لـو يحتويها في تلك اللحظة بين يديه...

ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الأرض وتميل المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضي بعد ذلك إلى الباب وانتبه إلى حاله، فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو غرفته وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب:

- عدت مبكراً... أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة واتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها، وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة:

- شكراً، لقد عدت لأني أحسست بتعب، وإني لآسف على إزعاجي لك... استريحي، ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من ارتكابها.

- دعني أخرج وإلا استبطأنني أمي

فقال لها برجاء وهو يشير إلى الكرسي:

- استريحي قليلاً... أرجو أن تمكثي معي هنيهة فإن لدي ما أقوله لك...

وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسي حتى جلست كارهة، ثم قال لها بصوت متهدج:

- فردوس! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بك وأقول لك... وأعياه القول فسكت؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغي أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً ينتحله لإبقائها. فقال بصوته المضطرب:

- أنت جميلة في الثوب الأبيض... أعني أنك فيه أجمل منك في أي ثوب آخر... الواقع أنك جميلة دائماً وفي أي ثوب كان...

فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالاحمرار فازدادت فتنة وازداد افتناناً. فلم يملك أن قال لها:

- فردوس... أنا... أنا أحبك... وقد أبقيتك هنا لأقول لك إني.. . أريد أن أتزوج منك

لم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها:

- هل أنت غاضبة؟... صدقيني يا فردوس سأتزوج منك ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها، ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها، ولم تقل له شيئاً، وسارت حتى غيبها الباب، ودخل الشاب إلى حجرته، وجلس على حافة سريره كعادته؛ ثم دس يده تحت

الحشية حتى عثرت بالحجاب، فوضعه على كفه يديم إليه النظر في سكون وتهيب، ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه، وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم: (من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة؟!)

أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً، ولم تكن أمها في الشقة، فجرت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجيء وهي تقول باضطراب: (يا بركتك يا شيخة زهية... يا بركتك يا شيخة زهية...!)

obeikandl.com

# مرض طبيب...[٨]

قبل عامين تفشى وباء التيفود في مديرية الغربية تفشياً مخيفاً فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصة، وكان في تلك الأيام يلاقي الشدائد المقضي على كل مبتدئ في فنه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية. فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجلد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشى ذاك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التي تطوف بالبيوت وتعود محملة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثبة، وأحس بالرغم من كل شئ بسرور خفي، وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء

[٨] العدد ٤٠٢ - بتاريخ: ١٧ - ٠٣ - ١٩٤١

القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت.

وصدق أمله، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلب صفحات كتاب وتجري عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدل منظره الوجيه وزيه الريفي الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصده بعد أن يئس من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنم على القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ربع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعد العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب في صدره من الفرح والظفر، فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب بسيارة فخمة فخفق قلبه مرة أخرى وتريث حتى فتح الرجل الباب وقال له (تفضل) وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزانته وصر بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعتلي شفتيه؛ وكأنه أراد أن يداري عواطفه فسأل الرجل عن مريضه، وتكلم الرجل في إسهاب فقال إن المريض ابنه وأنه لم يجاوز العشرين من عمره، وأنه أحس منذ أيام بتوعك وخور

ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد فسأله: (هل حقن بالمصل الواقي؟)

فأجاب الرجل بالنفي، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر في هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة في أثناء ذلك تخترق الطريق الزراعي بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تعرض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية في قصر العيني منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضي عمن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه في تحفظ وقال إنه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظن أنه ضمن لنفسه أن يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله. ثم أخذ حقيبته واتجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنه

يريد شيئاً، فلحق به والد المريض وهمس في أذنه قائلاً: (تفضل) فخفق قلبه لثالث مرة ذاك اليوم ومد يده وهو يقول: (شكراً) فأحس بثلاث قطع من ذات العشرة قروش توضع بها، ثم جلس في السيارة منفرداً هذه المرة، وانطلقت به في طريق العودة؛ وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته، فاغتبط ورضى وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور لم تخل من اضطراب عصبي فأخذ (أنفاساً) سريعة فتوهج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمر في التدخين طويلاً فوضعه في جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة في الأفق البعيد، وكانت تنتهي عند الطريق الزراعي بجدول من الماء ينساب صافياً تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتغشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيذ، حتى انتبه إلى تغير غريب يسري في صدره وجسمه فتحولت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحس بسخونة تنتشر في أعضائه جميعاً كأن حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرك رقبته بعنف، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكتة وأخرج منديلاً يروح به على

وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلاً لطيفاً، واشتدت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فجس خديه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفس، وتساءل في حيرة عما أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضاً؟!. . . وذكر لتوه الحمى الشيطانية التي تفتك بأهل المديرية فتكاً جهنمياً

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقي فكيف انتقلت إليه العدوى؟!. . . هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟!. . . ولفه الذعر وكان في الحقيقة جباناً رعديداً شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يجس خديه وجبينه فوجدها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلتهب التهاباً فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول (يا للويل. . . لقد أصبت وانتهيت. . .)

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب - وكانت عيادته ومقامه في شقة واحدة - فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: (ناد الدكتور سامي بهجة بسرعة وقل له إني أصبت بالتيفود) فجرى الرجل مرتعباً وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة

وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خيل إليه أن شراينه ستنفجر من الحرارة. وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمة شك في أنه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته. كان شديد الجبن متهافتْ الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط في النجاة وبات في يأس عظيم، وظل بعد الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضباً (هيهات أن يجد الدكتور في عيادته، وسأجن هنا وحدي. ..)

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه؛ وفكر فعلاً في أن يبعث إليها ببرقية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده واخوته الصغار وربما عرضها للخطر أيضاً - وكان هذا أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا - فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجة نقله إلى المستشفى، وربما تمكن من رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها في تلك الساعة حنيناً موجعاً. . . وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن

يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه. ولم يكن دار له بخلد أن الطبيب بمأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجمل أن يجزي غير هذا الجزاء... وقر في نفسه أن العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها؛ وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيفاً، ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية... وحدثه قلبه الرعديد بأن نهايته حمت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه، فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة آسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به... ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً... هو النهاية المحتومة على أية حال لمهزلة الحياة... وماذا يضيره أن يقصر دوره في هذه

المهزلة؟ فلعل في قصره اختزالاً لآلام مروعة. على أن تعزيه لم يدم طويلاً... وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى... فذكر آماله وأطماعه في المجد والثروة، وارتسمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة... وشعر بامتعاض يفوق الوصف... وذكر الثلاثين قرشاً التي طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فأزداد امتعاضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيد شحيحة، لا تفرط فيه حتى يهزلها المرض، فتراخى عن الضن به، ولعن النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة ببأساء آخرين... يالها من مهنة مخيفة، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء... وسخر في ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور قط... فهو لم يشمَر أبداً لغير المجد والثروة، ولم يتصور ساعة أنه يبلغهما بغير معونة المرض... فعبده وهو لا يدري، ونصبه آلهاً يقدم له القرابين البشرية كبعل القديم، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له، فأي حياة هذه؟... وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية لقصر العيني، وكان يريد أن يكشف على حلقه، فأمره أن يفتح فمه... وكان كلما أدنى

منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه... وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الحنق، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل، فضرب جبين القروي بالمجهر، فشجه وأسال دمه... وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئاً..

. وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العيني من أعمال القسوة التي تفزع من هولها النفوس البشرية، فذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض، لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد. واسودت الدنيا في عينيه، وعافت نفسه كل شئ في تلك الساعة الخبيثة

ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحادث الدكتور، فتمشت في أعصابه موجة نشاط ونسى وساوسه، وفزع إلى القادم بأمل جديد، ودعا ربه بصوت متهدج قائلاً: (آه يا رب، خذ بيدي! هبني حياتي مرة ثانية، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتى الموت)

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجة من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع: مساء الخير يا دكتور. مالك؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغيث: أُصبت!

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة، ثم قال: لعلها أنفلونزا

فقال بيأس: كلا... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً...

- ولكنك لم تشك تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام... أليس كذلك؟

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمتم قائلاً: حرارتي فظيعة... إني أشعر بالمرض شعوراً مخيفاً...

- هل قست الحرارة؟

فعجب كيف فاته ذلك، وهز رأسه نفياً ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجة ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر في يده، ثم وضعه في فمه وانتظر هنيهة، ثم أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشاب رافعاً حاجبيه وقال ببساطة: حرارتك طبيعية.. أنظر!

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عينيه، وجس خده ثم قال: هذا عجيب! خدي ما يزال ملتهباً. كيف هبطت الحرارة؟

وأتى الدكتور بسماعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكتة ففعل؛ ووقع بصر الرجل على الفانلا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها قائلاً: (انظر!)



obeikandl.com

فأحنى الشاب رأسه ناظراً إلى الفانلا فرأى فوق القلب دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف. فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل: (ما الذي صنع بي هذا!)

فضحك الدكتور بصوت عال وقال: (هاأنت ذا تكشف حمى جديدة يا دكتور!). وخطرت للشاب فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من الفراش واتجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولاً غليونه، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلا، ووقف مرتبكاً ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً مرة أخرى، وكان ما تزال تعلو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل ولكنه كان يحس بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرة أخرى

وبر الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كل شئ، وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبلها، وكان يظن أنه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتد به الزمن، ولكن وا أسفاه إن انقضاء الليل والنهار ينسى، ومن ينغمر في الدنيا يذهل عن نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير،

فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه ووعده حتى نسى ولم يعد يذكر إلا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه، ثم ارتد إلى ما كان عليه، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدوء البحر الذي يصفو ويرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعله لا يذكر هذه الحادثة الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صحبه إذا دعا داعي الحديث أو السمر!

obeikandl.com

# الهذيان[٩]

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيذاناً بطلائع النور، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود. كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعاني وبال مرض يهتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شاب في مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد، ويأبى القلق أن تلتقي أهدابهما، يطالع وجه المريضة في حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الحنان في عينيه الذابلتين ويتمتم في رجاء صادق: (اللهم صن حياة الأم المسكينة. . . وطفلتنا البريئة). وكان الشاب من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف. وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه رجل البيت، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية، والاشتراك في المظاهرات التي تستهوي أفئدة أقرانه، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير

[٩] العدد ٤٠٥ - بتاريخ: ٠٧ - ٠٤ - ١٩٤١

سبب؛ فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون، أو في السطح بين الدجاج والحمام؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معاً إلى السينما. ولذلك أخذ يفكر في الزواج تفكيراً جدياً منذ اليوم الذي عين فيه مهندساً بمصلحة الأشغال العسكرية. وراح يقصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من هر وشبكة وهدايا وفرح، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي. فلم يكن يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج، ولم يدهش أحداً أن تنعطف هكذا سريعاً إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا، ولكنه كان سيئ الحظ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع، واندفع إلى استدعاء أعظم الأخصائيين من الأطباء حملة الباشوية والبيكوية غير مبق على مال أو ضان بثمين، حتى اضطر إلى بيع المذياع وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداء إلى آخر قطرة... وبالغ في ذلك، فطلب من مصلحته إجازة كي لا يفارق المريضة، وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء

ويسألهم، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة، ويسأل العرافين، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام، ملتمساً الطمأنينة في مظانها جميعاً...

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهداً قلقاً لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟.. وكانت هي مسكينة تستحق الرثاء، تضطرب بين النوم القلق واليقظة الحائرة، وبين النزاع والهذيان، وما هذا الهذيان!... إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان. وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة: (صابر) فهرع إليها متسائلاً: (نعيمة.. هل تحتاجين إلى شيء؟) ولكنه أدرك أنه خدع لأنها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو ازدراد ريقها بصعوبة، فعلم أنها ماضية في هذيانها الذي لا ينتهي فعاد إلى سريره، وما كاد يرقد مرة أُخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه: (صابر... أنا متألمة خجلة) فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه: (أنت

متألمة بغير شك. أعانك الله على ما أنت فيه، ولكن مم تخجلين! أن هذا الابتلاء لا يخجل أحداً وإن كان يحزننا جميعاً) وظن أنها تألم لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آي اليقظة والشفاء؛ واستدركت المرأة تقول: (زوجي أحسن الأزواج؛ أما أنا فشقية.. . لست أهلا لوفائه) فتنهد الشاب حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع: (أنت أهل لكل خير). وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: (راشد... كفى وابتعد عني... أبتعد ودعني...) وكان يهم بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه، وحملقت عيناه المسهدتان، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل:

(راشد! من راشد هذا؟). وكان يشعر شعوراً باطنياً بأنه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة، وكأنما سبق أن آذى مشاعره. واسند جبينه إلى كفه وأغمض عينيه، وكأن صاحب هذا الاسم يعيش في الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحس لذلك رجفة تسري في مفاصله... راشد أمين أو أمين راشد - لا يذكر - شاب نافسه في طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أن والدها فضله هو

واختاره لكان قد تزوج منها. وقد تذكر أنه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أي أثر؛ ورفع رأسه مرة أُخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدقان؛ ورغب رغبة حارة في أن يستزيدها ويستوضحها، ولكنه لم يدر كيف يحثها على الكلام، ورأى شفتيها تتحركان في ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعاني جزعاً مجنوناً فسمع صوتها يقول فيما يشبه الأنين: (من يقول هذا... أف... والخيانة... راشد... صابر... الخيانة شيء قذر...) فشبك كفيه وشدهما على صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شيء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه في وهمه حتى ملأ الفراغ الذي أمامه فثقل عليه وسمج، ودوى صوتها في أذنيه، فصار كطنين لا ينقطع، وثقل تنفسه ويبس حلقه... ما هذا الذي تتكلم عنه؟! ما هذه الخيانة التي أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيئة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان؟! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجة عشر ما بذل من الرقة والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله له من الصفاء والإخلاص؟

فكيف انطوى هذا على أقذر ما تبتلي به الضمائر والنفوس؟ رباه... أنها تقول أن الخيانة شيء قذر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع في هذيانه من قذارتها إلا من انغمس في بؤرتها. رباه... لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجة أقسى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هين عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره، وأحس اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر دمث الأخلاق، لين الجانب رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولكنه يشل حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه، فيجعله كسيارة يدفعها محركها، وتقيد الفرملة عجلاتها، ولكنه بالرغم من هذا، تحولت رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه في سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسمات وأدام إليه النظر والشك والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحول عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر في نومه حتى التصق به وكانت مغمضة العينين بادية الاصفرار والخور، تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق في السحاب الداكن، وكان قبل لحظات إذا وقف

موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولكن قلبه تحجر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها: (نعيمة... نعيمة... ماذا فعل راشد؟) فلم تنتبه إليه ولم تصح، فرفع صوته وناداها وهو لا يدري: (نعيمة) فبلغ صوته مسمعي أمها في الحجرة القريبة. وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهي تظن الظنون وهرعت إليه متسائلة: مالها... هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن أعطاها شيئاً، وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التي تعانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلاً في استهانة وقسوة: (نعم وهي بخير والحمد لله) وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلص منها، ولبثت حماته قليلاً. وفي أثناء ذلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت في نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوق إلى إيقاظها ولكنه خشى التي في الخارج، فمضى بقية الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانية وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنها لا تحس شيئاً حتى اهتدت عيناها إليه فبدت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير (ما الذي أيقظك؟ لماذا

ترهق نفسك هكذا؟) فرد عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشد هزالاً وشحوباً، ولاحت في عينيها نظرة الوداع المخيفة، وكان يشغل باله شيء واحد أسهده الليل ولم يجهل أن إثارته خطر يهدد بالقضاء عليها، ولكنه لم يحس سواه ولم يبال غيره، وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة في الانتقام فقال بلهجة جافة: (تكلمت الليلة الماضية كثيراً، فشرقت وغربت، وأجرى الهذيان على لسانك كلاماً يحتاج إلى إيضاح) فلم تفهم شيئاً ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شيء سوى الذهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولكن منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبثت أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضباً وهو يقول لنفسه: (الطفلة الملعونة تداري فضيحة أمها وأبيها!). وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه: (كان ينبغي أن أعلم كل شيء وقد أتيحت لي فرص، لماذا أفر من صراخ الطفلة؟ أو من ظهور جدتها؟ الحقيقة أني ضعيف... ضعيف.. دائماً يندى قلبي بالحنان وبالعطف، فما كان أجدر بي أن أكون ممرضة... أما رجلاً فلا... لست رجلاً ولست زوجاً...

فأمثالي نساء كاملات، أو رجال مغفلون... ومع هذا هل أنا في حاجة إلى دليل جديد؟ دمرت حياتي وانتهى كل شيء)

وقضى النهار ضالاً لا يقر، بترد الألم في صدره مع أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالاً وأشد هزلاً. وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان، وتقص عليه ما قال الطبيب، فلم ينفذ شيء من قولها إلى صدره وعاف الرد عليها بتاتاً، بل لذله أن تقول أن الحالة سيئة، فلتتألم كما يتألم، ولكن كيف يفهمها أنه يعلم كل شيء؟ كيف يحادثها في هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارقتها في مثل تلك الحال الخطيرة؟.. واشتد به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعاً فيسمع منه ما امتنع منه سماعه في اليقظة؟ وملأ الفنجان ماء خالصاً ووضعه على فم المريضة فازدرته بامتعاض... وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة، ولكن زوجه لم تنم في تلك الليلة ولم تهذ واشتد عليها الألم الموجع فباتت تئن وتشكو وتضطرب. واستدعى الطبيب عند منتصف الليل فعاينها ولكنه لم ينصح بشيء، وهمس في أذنه بأن الحالة جد خطيرة... وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها.

وخلا إلى نفسه، وكان الذهول مطبقاً على حواسه جميعاً؛ لأن الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معاً في ساعة واحدة دون عهد سابق بهما. وماتت نعيمة ولم يحزن لموتها، ولكن حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أن الحقيقة لم تغب عنه فقال: (لم تمت كما يظنون... أنا قتلتها... قتلتها لأني منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشد ليالي المرض... فأنا قتلتها...) وجعل يردد (أنا قتلتها).

فكان يشعر لها بوقع غريب في نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح ثم قال مرة أُخرى: (وقتلتني هي حياً، وألصقت أسمي قسراً بطفلة إنسان سواي... ولكني قاتل فلست إذن مغفلاً).

وأسند رأسه إلى يده وراح في تأمل طويل وقد سرت في جسده قشعريرة البرد والخوف.

كيف انقضت الأيام التي أعقبت الوفاة؟... انقضت في ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل إنسان، ثم أعلن عن رغبته فجأة في السفر إلى لبنان انتجاعاً للصحة والراحة، وكان في الحق يفر من أفكاره وطفلته. ومضى إلى الإسكندرية واستقل السفينة، والظاهر أن نفسه الرقيقة تعرضت في البحر لأزمة عنيفة هدت كيانها وأتلفت أعصابه، فاستشعر

اليأس من الدنيا جميعاً وألقى بنفسه في ليم خلاصاً من عذابه وآلامه، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك...

وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون: (ما رأينا إنساناً يحب زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها فقضى على نفسه بعد موتها بأيام... رحمهما الله!)

obeikandl.com

# القيء....[١]

كان سعادة سعيد باشا كامل يقول كثيراً لخاصته إن رجلاً مثله ألفت نفسه العمل والنشاط، لأحرى أن تقعده حياة المعاش مقاعد المرضى المنهوكين. وصدقت نبوءته، فما كاد يحال على المعاش حتى سارع إليه ذبول الشيخوخة واعتوره الإعياء والخمول، ولذلك فإنه حين أصيب بالأنفلونزا لم يعمد كعادته إلى قهرها بالعناد والإيحاء الطيب والمثابرة، ولكنه رقد على فراش المرض عشرين يوماً قانعاً من لذيذ المأكل والمشرب بعصير البرتقال وماء الليمون. على أنه في فترة النقه اعتاض عن تصبره لذة لم يكن له عهد بها؛ كان الصيام قد صفى بطنه وطهر قلبه وأسكت نوازع جسده الصارخة، وطرد أشباح نفسه المفزعة، فأضاء عقله بسنا نور بهيج، واستنارت بصيرته بالصفاء والتجلي، وتبدت له الأمور على غير ما كان يرى، تراءت له الدنيا كومة من تراب، وكأنه يعتلي قمة السماء التي تظلها،

---

[١] العدد ٤١٨ - بتاريخ: ٠٧ - ٠٧ - ١٩٤١

وانكشفت له الحقيقة بغير قناع، فكأنما انجلت غشاوة الغرور عن ناظريه، فأحس أن بنفسه كنزاً يغنيه عن الدنيا وما فيها، وشعر بالسلام والطمأنينة يتدفقان من ينابيع صدره فذاق سعادة الجنان، وما كان ليفيق منهما لولا أن كرّ به الخيال إلى الوراء يتيه في غياهب الماضي وينبش قبور المنطوي من الزمان وينشر الرمم والعظام من الذكريات. . . كيف اختار أن يدعو الماضي ليتطفل على سعادته الراهنة؟ كيف رضي أن يغفل عن لذة الصفاء ليعاني ضراوة الأفكار؟ في الحق أنه لم يرغب في ذلك مختاراً، ولا راضياً ولكنه وجد الذكريات تطرق باب قلبه بإلحاح وعناد وعنف فلم يملك إلا أن يفتح لها كارهاً وأن يستقبلها ساخطاً متبرماً وأن يجترها بتقزز ونفور. ولم تكن المرة الأولى التي تزوره فيها ولكنها لم تكن تبدو له مخيفة ولا محزنة، أما في ساعة الصفو والتجلي فقد آلمته وأحزنته لأنه استقبلها بقلبه الجديد

رجع به الخيال إلى عهد كان سعيد أفندي كامل كاتباً بالأرشيف في الدرجة الثامنة المخفضة؛ وكان يقيم في منزل قديم بعطفة الجلاد بباب الشعرية، يعاني الأمرين من بساطة حاله وكثرة تبعاته وطموح قلبه وتعالي همته. وكان يقول لنفسه دائماً إن

الله وهبه ذكاء عالياً ولكن حظه السيئ ران عليه فصد أو خبا؛ ولكنه كان معروفاً بين الجيران لجمال زوجته الحسناء، وكانت أمينة من أصل تركي عاجية البشرة سوداء الشعر والعينين فاتنة القسمات فكان يدعوها أهل الحي بالأميرة وكانوا يضربون بجمالها المثل

وفي يوم من الأيام صدر قرار وزاري بنقله إلى أسيوط؛ فأسقط في يده، لأنه كان يعول والديه وأخوة صغاراً ولا يقوم مرتبه بالإنفاق على بيتين؛ وبدا له - في يأسه - أن يوجه زوجه إلى قصر (سليمان باشا سليمان) السكرتير العام لوزارته لتستعطف أمه أو زوجه لكي يبقيه الباشا في الإدارة العامة بالقاهرة؛ وراقت الفكرة لأميرة عطفة الجلاد بباب الشعرية فذهبت إلى قصر الباشا وسألت عن أم الباشا فقيل لها إنها ماتت من عهد طويل معه، فسألت عن زوجه فقيل لها إن الباشا أعزب، فأوشك أن يلحقها القنوط وأن تهم بالعودة من حيث أتت، ولكن صادف ذلك خروج الباشا من قصره، فاستوقف بصره منظر السيدة الجميلة التي تحادث البواب، فسأله عنها، فاستجمعت الشابة شجاعتها الموزعة وحدثت الباشا عما جاءت من اجله؛ ورق الباشا لجمالها فدعاها إلى

صالون الاستقبال واستمع إلى شكاتها باهتمام وشغف. كانت تنظر عيناه أكثر مما تسمع أذناه، وكان كلفاً بالحسان ينسى في مجلسهن دينه ودنياه، فتحلب ريقه واحترق صدره، وابتسم لها ابتسامة حلوة وربت على منكبها بحنو وقال لها

- سأنظر في طلبك بعين العطف يا حسناء

وكانت أمينة قادرة على قراءة العيون فتولتها الدهشة ونظرت للباشا نظرة ملؤها الشك والارتياب ففتنته النظرة؛ فمد يده - كما تعود وكما ألف - فعبث بذقنها الصغيرة فقطبت جبينها وجفلت منه. فلم يدركه اليأس وما كان يدركه اليأس أبداً وقال لها برقة

- كلانا له رجاء عند صاحبه فاقضي رجائي أقض رجاءك

وعادت المرأة إلى زوجها وقصت عليه ما لقيت من الباشا فانزعج الشاب انزعاجاً كبيراً، وأرادت أمينة أن تشاركه عواطفه فبكت وإن لم تخل من زهو وفخار، وأزمع الشاب يأساً وقال لنفسه: (ليكن سفر، والأمر لله). ولكن في صباح اليوم الثاني استدعاه مدير الأرشيف فذهب إليه مبلبل النفس مضطرب القلب يظن أنه مبلغه أمر النقل لينفذه، ولكن الرجل قال له: (مبارك يا سعيد أفندي لقد ألغي أمر نقلك).

فشكره الرجل متحيراً وهم بالرجوع، ولكن المدير قال له: (ومبارك أيضاً فقد رشحت لوظيفة من الدرجة السابعة بمكتب السكرتير العام)

آه كم رنت الدرجة السابعة في أذنيه رنيناً بديعاً.. لقد اضطرب وغضب وسخط وتحير وتردد وقارن ووازن، ولكن رنين الدرجة ابتلع كل صوت حتى صوت ضميره وعفته، وتيقظت أطماعه وجمح طموحه فاستسلم. وكانت أمينة التركية الجميلة ذات غرور وطموح أيضاً فاتفقا على أن السوأة شيء يدارى، أما الفرصة المؤتية فشيء لا يعوض... وهويا معاً...

وعزم على ألا تكون تضحيته عبثاً، فدرس في بيته حتى حصل على ليسانس الحقوق ورقى سكرتيراً للسكرتير العام؛ وما زال يصعد مدارج الرقي مستعيناً بهمته وذكائه وجمال زوجه. فلما اختير سليمان باشا سليمان وزيراً جعله مدير مكتبه، وقامت زوجه بنشر الدعوة له في الأوساط العالية وقدمته إلى كبار الرجال، فتبوأ بفضلها مركز السكرتير العام، وصار سعيد باشا كامل، وصارت هي حرم الباشا المصون... وكان قد تعود المهانة كما يتعود الأنف الرائحة النتنة... وفي يوم من الأيام أعلن الباشا أنه مسافر إلى بور سعيد في رحلة تفتيشية

تستغرق عشرة أيام. وبلغ المدينة وشرع في العمل بما عرف عنه من النشاط وعلو الهمة ولكن اعتوره تعب فجائي اضطر معه إلى قطع رحلته والعودة إلى القاهرة، وانتهى إلى قصره مع المساء، وكانت عودة غير متوقعة، فاستقبله البواب بدهشة لم تخف عن عينيه على ندرة اندهاش النوبيين، والتقى الباشا بالسفرجي في الردهة التحتانية، فتولى الرجل الانزعاج ولم يستطع أن يخفي تأثره، فغضب الباشا وسأله: (أين الهانم؟) ولم يجب الرجل كأنه لم يسمع، فقال له بحدة: (أين الهانم يا أحمق؟)، فارتعب الخادم وقال بتلعثم: (فوق يا سعادة الباشا. . فوق)، فصعد السلم الخشبي المفروش بالبساط الأحمر المخملي وهو يتساءل: ماذا هنالك!؟ وبلغ الصالة في ثوان، فرأى وصيفة زوجه تنسق باقة زهر ناضرة. . . فلما رأته حملقت في وجهه بذهول وجمدت عن الحركة لحظة كأنها فارة جذبت عيناها إلى عيني هرْ. . . ثم هرعت إلى حجرة النوم ونقرت على بابها المغلق وهي تقول: سيدتي. . . الباشا هنا. . . فساوره القلق والاضطراب ودنا من الباب ووضع يده على الأكرة وهو يعجب كيف لم تسارع الهانم إلى فتح الباب واستقباله، ثم أدارها فلم

ينفتح الباب، فالتفت ناحية الوصيفة فلم ير لها أثراً، فنقر الباب وهو يقول بصوت متهدج:

- يا هانم... لماذا تغلقين الباب؟

فلم ترد جواباً، فأدنى رأسه من الباب فسمع حركة وصوت اصطدام شيء صلب بالأرض... فاهتاجه الغضب... فضرب الباب بعصاه وصاح بحدة قائلاً:

- يا هانم... ألا تسمعيني... أمينة هانم...

ثم مضى يدفع الباب بعنف، فسمع صوت الهانم تقول:

- انتظر من فضلك في المكتبة حتى ألحق بك!

فقال بحدة: افتحي الباب

فردت عليه بهدوء وإصرار: انتظرني في المكتبة من فضلك

- هذا سلوك غريب... ما هذه الحركة بداخل الحجرة؟

- اذهب إلى المكتبة من فضلك

- لن أتنحى عن الباب حتى يفتح لي

فسكتت المرأة هنيهة ثم قالت بحدة وغضب:

- معي شخص ينبغي أن يخرج بسلام

وخذلته أعضاؤه المنهوكة فأحس خوراً، وذهولاً، وجموداً ثقيلاً ران على قلبه وتنفسه، ولبث دقائق لا يبدي حراكاً، ثم مضى

بخطى ثقيلة إلى المكتبة وارتمى على مقعد ترتعش يداه من الانفعال والحنق، وقال بصوت كالمختنق: (يا عجبا... إنها لا تكلف نفسها مؤونة التستر على فضيحتها فالخدم يعلمون بغير ريب...)، واهتاجه الغضب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، وما كانت إرادته تقدر على أن تصطدم بإرادتها بحال، فتصاعد غضبه دخاناً كتم على أنفاسه وسد مسالك صدره... وقال بلهجة هستيرية: (هل يكون هذا المنتهك حرمة فراشي إلا تلميذاً شريراً أو متعطلاً متسكعاً؟!) وانتظر أن تلحق به فلم تفعل؛ فقام مرة أخرى وقصد إلى حجرة النوم يسير بخطى مضطربة فوجدها جالسة على الشيزلنج منكسة الرأس، فلما أحست به بادرته قائلة:

- إني أغادر البيت في الحال إذا كان هذا يروقك

فلوح بعصاه غاضباً وقال بحنق:

- ما هذه الفضائح... ما هذه القذارة؟

وأصابت العصا ساقها دون قصد منه. فرفعت إليه بصرها وحدجته بنظرة باردة قاسية كان لها في نفسه وقع شديد وقالت له:

- أتضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب؟!

لقد كانت تلك الكلمة أليمة موجعة، ولكن ذكراها التي تعاوده الآن أنكى وأمرّ

وشعر عند ذلك بغمز موجع في صدره، فاتكأ على يديه الضعيفتين وهمَّ جالساً في الفراش وكسر مخدة واستند عليها متنهداً من الأعماق، وبدأ كالمستغيث من أفكاره، ولكن ذاكرته لم ترحمه ولم ترق لحاله فاستحضرت أمام ناظريه حادثة أخرى ليست دون سابقتها بشاعة وقبحاً. . وكان ذلك وهو في أوج مجده الحكومي وكان يترأس حفلة بمدرسة الجيزة الثانوية فألقى كلمة استقبلت بالتصفيق والتقدير ووزع الجوائز على المتفوقين وغادر المنصة مودعاً من كبار الموظفين إلى سيارته وانطلقت به السيارة، وقد أخذ الظلام يغشى الطرق والحقول؛ وعند منعطف الطريق انبرى له شاب - ولعله كان تلميذاً - وصاح بأعلى صوته: (كيف تضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب) وعرته رجفة شديدة، وتشنج جسمه فلم يلتفت نحو القاذف الخبيث وشعر بانهيار وتفكك، فتفصد جبينه عرقاً بارداً ثم إلى دمه، وعجب كيف ذاعت هذه الجملة الآثمة حتى بلغت هذا الشاب. لقد غدا قصره مورداً لفضائح غير مستورة ينهل منها المتطوعون لإذاعة المخازي. على أنه كان في تلك الأيام

قوياً مستهتراً يهضم ضميره القتيل الفضائح بغير مبالاة فهدأ روعه وقال باستهانة وحنق: (قولوا ما يحلو لكم قوله - فسأظل - وأنوفكم في الرغام، السيد المطاع والرئيس المرتجى. أما الآن في ظل النقه والطهارة فقد امتعض وحزن وشعر بالذكريات تصليه لهباً جهنمياً. . .

ودخلت عند ذاك أمينة فسألته برقة: (كيف حالك يا باشا)؛ ثم جلست على مقعد وثير، فنظر إليها بعينيه الذابلتين نظرة غريبة لم تفهم معناها الحقيقي؛ وعجب الرجل كيف تحافظ على حسنها وشبابها حتى ليخال الناظر إليها أنها في منتصف عمرها، مع أنه لا يكبرها بأكثر من ثمانية أعوام. . . ثم قال لنفسه دهشاً: (رباه. . . كأني كلما زدت عاماً نقصت عاماً. . . فمتى تذبل وتذوي وتجفل من النظر إلى المرآة؟؟)

# ثمن السعادة[11]

دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيه يقلب عينيه في الصور المعلقة على حيطان الحجرة، وكانت المرة الأولى التي ينتظر فيها تلميذه منذ جيء به ليدرس له لعشرة أيام خلت، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة ورأى الغلام مقبلاً عليه يتأبط كتبه وكراسته، فحدجه بنظرة تعنيف ولكن راعه أن يرى عينيه محمرتين من البكاء وذقته الصغير يرتعش من التأثر فسأله باهتمام: (مالك؟)

وكان السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه وهو ينتحب:

- تيزة. . . ضربتني. وتشاجرت مع بابا وما زالا يتشاجران فسأله باقتضاب (من تيزة هذه؟)

(امرأة بابا)

---

[11] العدد ٤٢٠ - بتاريخ: ٢١ - ٠٧ - ١٩٤١

فدلته هاتان الكلمتان على معان كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال. على أن الغلام تطوع من نفسه فسرد قصته الصغيرة الحزينة على مدرسه. قال: إن والدته ماتت لعهد ولادته وأن أباه تزوج من تيزة بعد ذلك بعام أو عامين، وأنه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأم، وأن أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران، وأقسم أن الحق دائماً مع أبيه، وأنه لا يشتبك معها حتى يضطر إلى ذلك اضطراراً، ثم لا يبث أن يكف عنها يائساً قانطاً، فلا تسكت هي عن الغضب والحنق والسباب. وأصغى المدرس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر، وواساه بكلمة تافهة، ثم تناول الكراسة وبدأ عمله، ولم يطرقا الحديث مرة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذلك من الأيام، حتى كانت ساعة درس فاقتحمت عليهما الغرفة بغير استئذان شابة حسناء في ريعان الشباب، فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفاً في تأدب واحترام وألقى على الزائرة نظرة حيية، فراعه ما رأى - لا من حسنها وشبابها فحسب - ولكن من انطلاقها على سجينها وعدم تكلفها، الأمر الذي أخرجها - بغير قصد طبعاً - عن الاحتشام، فكانت ترتدي

(روب دي شامبر) من نسج رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفي ساقيها وأعلى الصدر، وكان الأستاذ يظن أنه لا يجوز لشابة أن تبدو هكذا لعيني رجل غريب، ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحدس أنها إحدى أخوات تلميذه المتزوجات، وتأكد حدسه حين رآها تمد يدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثم جلست باطمئنان تجاه المدرس وهي تخاطبه قائلة: تفضل بالجلوس... هل يعجبك عمل توتو! فجلس أنيس وهو يقول: (توتو مجتهد، وقد تقدم في هذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلا المثابرة على حفظ الكلمات)

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمر في عمله، فعلم أنها ترغب في أن تشهد درسه، فلم ير بدأ من متابعة الدرس متلعثماً برماً، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنها تتابع كلامه، فوجه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحاً عذباً. وفي مرة أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتد في اضطراب وذعر ولم تمكث الشابة طويلاً فحيته وانصرفت، فشيعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهماً: أهي أختك؟

فهز الغلام رأسه سلباً وقال بجفاء: (تيزة) فتملكت الشاب الدهشة وتساءل متعجباً (تيزة؟!) فنظر الغلام إليه بإنكار وقال: (نعم). فتمالك أعصابه ولم ينبس بكلمة، ولكنه لبث مشغولاً دائم التفكير، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو - كما رآه يوم قدم إليه - ببدنه المترهل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع، قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجدور، ثم تمتم قائلاً: (الآن فهمت كل شيء... فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز الستين، وزوجه لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفية... ولكن لماذا تلطفت بالغلام أمامي؟!). ولم يعتور أفكاره سوء، لأن أنيس كان طالباً ريفياً - كان طالباً وإن كان أستاذاً لتوتو - طاهر النفس، على أنه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثر

وفي الدرس التالي لم يكد يطمئن إلى مقعده أمام تلميذه حتى كانت (تيزة) ثالثتهما؛ وكانت كما رآها أول مرة، جميلة خليعة متبذلة في ثوبها، ولم تلازم مكانها طوال الوقت، فكانت تخرج لبعض الشؤون ثم تعود إلى جلستها. وفي مرة عادت فجلست

إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنها تعمدت ذلك، فخال أنيس أن ساقها - لدنوها - تلامس ساقه. وعند انصرافه سلمت عليه باليد، فراح يضوع من كفه أريج معطر، ومضى مبلبل لفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفية حارة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهم محاضراته عبثاً حتى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعاً مكروباً: (لا احسبني إلا مجنوناً أو مسحوراً)

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفاً بها قبل كل شيء، وأحس أن تفضلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقية التي تبذلها له الدنيا جميعاً، فاستلذها واستطابها وجن بها جنوناً. وجعلت الشابة الفاتنة تودد إليه، وتعرض لعينيه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينيها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها فاتكة. والشاب يذهل عما حوله بسرعة جنونية. وذهب يوماً إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة في الحجرة دون الغلام، فسأل عنه وهو لا يحفل به في باطنه. فقالت له المرأة: (ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنها مريضة). فأحس خيبة وحنقاً لأنه سيضطر إلى مغادرة البيت، وقام واقفاً كئيباً، فسألته: (إلى أين؟). فأشار إلى الباب وقال (سأعود من حيث أتيت). فصوبت إلى عينيه نظرة

ملتهبة وتمتمت بجرأة وهي تهز رأسها الصغير (كلا...) فخفق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالمسحور المذهول... ثم تبعها على الأثر لا يلوي على شيء

وتخلفت بعد ذلك عن حضور درسه، ولكنها سمَّت له الأيام التي يستطيع أن يلقاها فيا في أمن من الرقباء. فاندفع في سبيله كمياه الشلال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصم الآذان وتعمى البصر وتغرق هواجس انفس، مستكيناً لنوازع شهوته وجنونه. وإنه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحب إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلة على الطريق، فرأى مشهداً تجمد له الدم في عروقه، وتصلب شعر رأسه من الهول، فتعثر وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنما يداري نفسه؛ وتقدم في خطى مضطربة لاهثاً حتى بلغ منعطف الطريق، وأراد أن يستوثق مما رأى فصوب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئناً إلى كرسيه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهش الذباب عن وجهه بمذبة.. فأيس من تكذيب عينيه، ولهث قائلاً بفزع لا يوصف: (رباه إنه هو هو... نعم هو في جلباب البيت فكيف

كان ذلك...؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجه...؟ فكيف لم يشعرا به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدل ثيابه؟ أم أنه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ أو كيف لا تعلم بوجود زوجها في البيت؟ بل كيف لم يشعر به رب البيت مع أنه غادر المخدع في خطى مطمئنة غير محاذرة؟... رباه...! لقد نجا من شر فادح.. وداخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنه قد اجتاز سوراً شاهق العلو في نومه... وتخايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متعظاً بالهاوية التي أوشك أن يتردى فيها. ولكنه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعاني الآم قلبه وجموح عواطفه، ولكن المرأة لم تمهله حتى يتناسى ويتعزى، فعادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينيها في عتاب وكدر... وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجي وسألته بحدة: (لماذا لا تأتي؟)... فقص عليها همساً ما رأته عيناه آخر مرة، ونظر في وجهها ليمتحن أثر كلامه، فها له ألا يرى الانزعاج الذي كان يتوقع، وسمعها تقول بلهجتها الغاضبة: (كذبتك عيناك...)، فأكد لها أن ما رآه حق بغير ريب، فاستهانت

بتأكيده وقالت له: إنها ستنتظره وترى ما هو فاعل... فأبدى لها مخاوفه... فقالت وقد نفد صبرها: (أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة... تعال ولا تخف..)، فوعدها بالعودة لكي يتخلص من إلحاحها ثم انطلق على نية ألا يعاود ذلك البيت إلى الأبد...

ولبث على ذلك أسبوعاً كاملاً. وفي مساء يوم الجمعة، وكان في الشقة - التي يشاركه فيها بعض الأقران - بمفرده، سمع طرقاً على الباب، فمضى إليه وفتحه، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكئاً على عصاه ذات المقبض العاجي. فسرت في جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزالاً عنيفاً، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع: أن امرأة ربما وشت به كذباً عند زوجها لتكيد له، وأنه جاء للتأديب والانتقام... فاستولى عليه اليأس والقنوط، وصعد في وجه الرجل نظرة ارتياع ليقرأ ما تدل عليه إمارات وجهه وما ينذر به حضوره، فرآه هادئاً مبتسماً كأنما جاء لسلام لا لقتال. ومد يده بالسلام، فمد الشاب يده، ولما يفق من دهشته...

ثم تنحى عن الباب وهو يقول مزدرداً ريقه: تفضل بالدخول يا سيدي... فدخل البك وهو يتحدث قائلاً: إنه لا داعي للجلوس

لأنه على عجل، وأنه جاء ليسأل عن صحته وعما إعتاقه عن متابعة دروسه... فاعتذر أنيس بأن موعد امتحانه اقترب وأنه في حاجة إلى كل دقيقة من وقته... ولكن البك لم يقتنع بحجته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقة ألا يحرم توتو من دروسه. فعاود الشاب الاعتذار، وكر الرجل إلى الإلحاح، ثم أدنى رأسه من أنيس وقال له: لابد من حضورك... فهذا ضروري جداً لتوتو... تعال حينما تشاء وكيفما تشاء... لابد من حضورك، فهذا ضروري جداً... وكان لا يحول بصره عن الشاب، فوجد في نظرته ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته. .. أما الشيخ، فصمت لحظة متردداً، ثم استدرك قائلاً: (هذا ضروري لتوتو ولسعادتي ولسعادة الأسرة... بل لسعادتنا جميعاً... فأصغ لي، لابد من حضورك...)

واحتقن وجهه بالدم، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم في البكاء ثم تحول عنه... ومضى دون أن ينتظر موافقة الشاب، ولبث هذا في مكانه متفكراً مذهولاً تتجاذبه شتى العواطف...

وكان الأسبوع الذي أعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عميقة أخذت بتلابيب أنيس، فتقاذفته الغرائز والشهوات،

وتجاذبته نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة، وكان ذا عزيمة قوية وسريرة طاهرة وقلب تقي، فآثر السلامة. فلما أن استدار الأسبوع أحس قواه تتماسك وتشتد، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بين رضوان بك السيئ الحظ وزوجه الحسناء القلقة الغضوب ويودع ذاك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسية. . .

وانتصف مايو، فقصد أنيس يوماً إلى الكلية ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان. ولما بلغت به قدماه باب مقهى المثلث، شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب، فرفع رأسه إليه فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيارة تنتظر على كثب، فارتبك ورفع يده بالتحية، فالتقت يداهما، وابتسم البك ثم سأله عن حاله، وتحدث معه قليلاً دون أن يعرج إلى الذكريات القديمة. وحين هم بمفارقته غير لهجته وقال بصوت دل على الضراعة والمضض: (أيها الشاب. . . إياك والسخرية من الناس أو الهزء بالبؤساء، فأنت تجهل الدور الذي تعده لك الأقدار غداً. واذكر أن أغرب تصرفات الإنسان لا تعوزها أسباب تبررها؛ فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر - كتب الله حظاً

سعيداً. . .) ورفع يده بالسلام وسار في طريقه منتصب القامة يدل مظهره على أنه رجل عسكري بغير جدال.

obeikandl.com

# مفترق الطرق[١٢]

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ. فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو تر تجهم كدر. ولن تعدم قائلاً يقول إن هذا الزمان أضيق رزقاً وأنضب حياء وأفسد خلقاً وأقل سعادة وأنساً من الزمان الماضي، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرماً بقساوة الحياة وفراراً من جفاف الواقع ولياذاً بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل بعث أمل وطب آلام. ومهما يكن من أمر هذا السخط فما من شك في أن جلال أفندي رغيب كان على حق في شكواه التي يرددها بغير انقطاع. كان مراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره، قد وسع الله له في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقتر عليه في الأخرى، فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية. وأما مرتبه فسبعة عشر جنيهاً، فناء بأثقال

[١٢] العدد ٤٢٣ - بتاريخ: ١١ - ٠٨ - ١٩٤١

العيش ومتاعب الحياة، وقصمت ظهره المصاريف المدرسية. وكان كثيراً ما يقول متبرماً حانقاً كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم: (رجل مثلي - أب لستة ذكور، اثنين في المدرسة الثانوية، واثنين في المدرسة الابتدائية، وواحد في المدرسة الأولية، وواحد في البيت، غير زوجة وأم، ولا تراه الوزارة حقيقاً بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف... فمتى إذا تجوز المجانية!.. ولمن تجوز؟). وكان كغالبية أهل هذا البلد يائساً من العدالة قانطاً من الخير، يعتقد اعتقاداً كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء، فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاق، ومعاناة الشدة عاماً بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة

ولبث على حاله لا يطمع في رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: (ينبغي أن أقابله... وأن أشكو إليه... هل يرفض رجائي؟... لا أظن)، وقصد يوماً إلى سكرتير الوزير وكتب

حاجته على رقعة ليوصلها إليه، فمضى الشاب بها وتركه في حالة من القلق والإشفاق لا توصف؛ وعاد مسرعاً يقول لجلال أفندي: (معالي الباشا مشغول جداً اليوم فلتتفضل بالمجيء ضحى الغد)، فعاد إلى حجرته مسرعاً واجداً متألماً، وكان ألف طوال مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهار المديرين، ولكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أي شيء، وجعل يتساءل: ترى هل يذكرني؟... ولم يكن شيء، ليصده عن هذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلاً حتى قال له الشاب: (تفضل)، فقام مسرعاً خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:

- أهو أنت!.. لقد اشتبه علي الاسم... أو ما تزال حياً؟

فسر جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال:

- نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظي في الدنيا

فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم: (أفندم)، فقال جلال:

- يا معالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام. لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبي صغير، ولست طامعاً في علاوة أو درجة، ولكني أضرع إلى معاليكم أن تعفى ابنين لي في مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات

- الاثنين معاً؟!

- نعم يا معالي الوزير؛ إن آمالي مشرقة بمعاليكم، لقد جاوزت معاليكم عهداً طويلاً من سني الدراسة، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعاً، خاصة إذا علمتم أن لي غيرهما أربعة آخرين، فقال له الوزير باقتضاب:

- قدم لي مذكرة

وكان الرجل محتاطاً لذلك، فأخرج من جيبه التماساً أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة، وقال للرجل:

- اطمئن. . .

فانحنى جلال أفندي تحية، فتكرم الآخر بمد يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر. ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجباً: لم يتغير (حامد شامل) البتة، ولا تقدم به العمر، وكأنه في ريعان الشباب... هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين؟... تا لله إني لأبدو لعين الناظر في سن والده!... وقضى وقته يفكر في الوزير، في حاضره وماضيه، وفي صلته القديمة به... ثم اضطجع بعد تناول غدائه في بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات... فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي... إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ (حامد شامل) على مقعد واحد، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهري... وكان التلميذ (حامد شامل) يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار شعره، وبملازمة عبد متهدم طويل يرتدي بدلة سوداء له في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى، ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذي العربة إذا ركب، ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه (حامد اغا)، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتد بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد... والأعجب من هذا

أنهما جريا معاً وراء تلك العاطفة - التي تهيج الجد والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم - منذ أول عهد تجاورهما؛ وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين. وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسي المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالاً، وكانت كفة جلال الراجحة... وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع. فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة. يا لله!... كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستعرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة؟... كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر مراجعاً بالحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل!

ثم تمتم قائلاً وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة: تا الله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا، وخشي أن يكون متجنياً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسي الوزارة؟... لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه، إلى الانقطاع عن الدراسة والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثم حصل على الليسانس، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيراً للحقانية فعينه سكرتيراً له في الدرجة الخامسة، فكانت القفزة الموفقة الأولى. وقرأ بعد ذلك في الصحف أنه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها ولا ما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولى الوزارة مرات، فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديراً لإدارة التشريع، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان، ثم بترقيته محافظاً للقنال بعد ذلك بقليل، ثم باختياره وزيراً للمعارف، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته

الإدارية ومشروعاته عن إصلاح التعليم، وكاد جلال أفندي أن يصدق ما يقال لولا أنه قرأ مقالاً عن تفوق الوزير في عهد الدراسة - في العلم والرياضة البدنية معاً - وكيف أن مفتشاً من مفتشي الوزارة تنبأ له على أثر مناقشته بأنه سيكون يوماً وزيراً، فأغرق الرجل في الضحك، وقال ساخراً: (الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية!)

وتنهد جلال أفندي رغيب وتمتم قائلاً: (دنيا!)، وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة؛ والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه، فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة؛ ما إن بصر بها حتى صاح في دهشة وغرابة (رباه هذه صورة فصلنا القديم) وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف في الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور في ابتسام وثقة؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلاً وذكر قصة الذبابة، وقد كانت في الأصل من نصيبه هو وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه؛ وقد أحس أسفاً لذبة الذبابة فلعلها كانت

ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه في آفاق الماضي حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين، ونظرة عينيه تصفو وترق، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال... أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف صار هؤلاء جميعاً؟... وعاين أول صورة في الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه (عبد الملك حنا)، وذكر كيف كانت تنتابه نوبات الصرع في الفصل حتى انقطع عن المدرسة... أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصايرهم؛ وعرف في الصف الثاني وجهاً كأنما تركه بالأمس؛ كان ابناً لأحد كبار المستشارين فكان يتمتع لذلك بنفوذ وصوله فيحييه الناظر إذا بصر به، ويلاطفه المدرسون، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلاً للنيابة وترقى قاضياً، ولعله يتأثر الآن خطى أبيه الكبير. أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه في المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة، وأما آخر هذا الصف - الذي ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك

ذراعيه على صدره - فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين. ومن العجيب أنه احترف فيما بعد (البلطجة)، وطاف بالسجن مرات. وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئاً إلا الدكتور المعروف (حنا عبد السيد)، وإلا هذا الذي يتوسط الصف الأول، كان أنبغ التلاميذ جميعاً، وكان أول الابتدائية ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخي المواهب، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء اصدر فاضطر بعامين ترك المدرسة والكف عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتباً في الصحة... فلا يقل حظه شذوذاً عن حظ الوزير نفسه.

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه. كانت تجمع بينهم جدران واحدة، لا يكاد يتميز وراءها إنسان إلا بجده وخلقه، ففرقت بينهم الحياة، فرفعت وخفضت، وأحيت وأماتت، وأذاقت الفقر، ومتعت بكرسي الوزارة، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع...

ونظر جلال أفندي عند ذاك في الساعة فوجدها تدور في الرابعة، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب، وإنهم عما قليل

يملئون البيت حياة وقلبه نوراً، فرمى بالمجلة بعيداً وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال، وقال لنفسه متعزياً:

- من الخطأ أن يفكر الإنسان في شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلا الضيق، وحسبي أن معاليه قال لي: (اطمئن)

obeikandl.com

# بدلة الأسير[١٣]

كان (جحشة) بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار وكان يعد المحطة بحق سوقه النافقة، فيمضى على الإفريز في نشاط منقطع النظير يتصيد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين. ولعل (جحشة) لو سئل عن مهنته للعنها شر لعنة. لأنه كغالبية الناس برم بحياته، ساخط على حظه. ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأعيان، فيرتدي لباس الأفندية، ويأكل من طعام ألبك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة في الصيف والشتاء، مؤثراً من أعمال الكفاح في سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة. على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى الغر - سائق أحد الأعيان - يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور في الطريق ويغازلها بجسارة وثقة، بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه

[١٣] العدد ٤٤٦ - بتاريخ: ١٩ - ٠١ - ١٩٤٢

حبوراً: (سآتي قريباً ومعي الخاتم) ورأى الفتاة تبتسم في دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها، والحقيقة أنها أرادت أن تبدي عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت. . . رأى ذلك فالتهب قلبه وأحس الغيرة تنهشه نهشاً موجعاً. وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل في الذهاب والإياب، حتى إذا حلا بها في عطفة أعاد على أذنيها ما قاله لها الغر: (سآتي قريباً ومعي الخاتم)، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت له باحتقار: (هات لك قبقاب أحسن). فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنهما بطنا بخفي جمل، وجلبابه القدر، وطاقيته المعفرة وقال: (هذا سبب شقائي وأفول نجمي). ونفس على (الغر) عمله وتمناه. . . على أن آماله لم تقطعه عن مهنته، فثابر على كده قانعاً من آماله بالأحلام. وقصد في ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينتظر القطار القادم.

ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادماً من بعد كأنه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقترب وتتميز أجزاءه ويتصاعد ضجيجه حتى وقف على أفريز المحطة. . . وهرع (جحشة) إلى العربات المتراصة، فرأى - لدهشته - على الأبواب حراساً مسلحين،

ووجوهاً غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذين تساقطوا بين أيدي عدوهم بغير حساب. وإنهم يساقون الآن إلى المعتقلات.

فوقف (جحشة) متحيراً يقلب عينيه في الوجوه المغبرة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه المغبرة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة في البؤس والفقر لن يكون في وسعها إشباع نهمها من سجائره... ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار وهمّ أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى. ولكنه سمع صوتاً يصيح به العربية بلهجة إفرنجية قائلاً (سجائر) فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه: أي تقود. ففهم الجندي وأومأ له برأسه فاقترب محاذراً ووقف على بعد لا تبلغه يد الجندي. فخلع الجندي جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوح بها: (هذه نقودي) فتعجب جحشة وتفرس في الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع. ووجب قلبه، ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً، فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالي، وأبرز في هدوء ظاهري

علبة سجائر، ومد يده ليأخذ الجاكتة. فقطب الجندي جبينه وصاح به (علبة واحدة بجاكتة؟... هات عشرا) فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء، وقد غاض طعمه، وأوشك أن يأخذ في غير السبيل. فصاح به الجندي (أعطني عدداً مناسباً... تسعاً... أو ثمانيا) فهز الشاب رأسه بعناد. فقال الجندي: (إذاً سبعا...) ولكنه هز رأسه كما فعل في الأولى، وتظاهر بأنه يعتزم المسير فقنع الجندي بست ثم هبط إلى خمس. فلوح جحشة بيده متظاهراً باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس، فصاح به الجند المجنون: (تعال... رضيت بأربع...) فلم يلق إليه بالاً؛ وليدله على عدم اكتراثه أشعل سيجارة ومضى يدخن في تلذذ وهدوء. فثارت ثائرة الجندي وأهاجه الغضب، وبدا وكان ليس له غاية في الوجود سوى الاستيلاء على سجائر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين. ولبث جحشة جالساً يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طعمه ولما نزل الجندي إلى اثنتين أبدى حركة بغير حركة إرادة رآها الجندي. فقال له وهو يمد بالجاكتة: (هات) فلم ير بداً من النهوض ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة، وأعطى الجندي العلبتين. وتفرس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على

المقعد وارتدى الجاكتة، وزرها. فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجباً وسروراً واسترد صندوقه. وأخذ يقطع الإفريز فخوراً طروباً. وارتسمت لعينيه صورة نبوية في ملاءتها اللف فقال متمتماً: لو تراني الآن! نعم لن تتجافاني بعد اليوم ولن تلوي وجهها عن احتقاراً. ولن بجد الغر ما يفخر به علي. ولكنه ذكر أن الغر يرتدي بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البنطلون. وفكر ملياً. وألقى على رؤوس الأسرى المطلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر. ودلف إلي القطار ونادى بجرأة: (سجائر. سجائر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود. العلبة بمنطلون) وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً، وخشي أن يغيب عن الإفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التي يرتديها ويلوح بعلبة سجائر. ولكنه إيمائه الأثر المرجو فلم يتردد جندي أن يهم بخلع جاكتته ولكنه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهل، ثم أشار إلى بنطلونه يعني أن ذلك بغيته؛ وهز الجندي منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتم التبادل. وقبضت يد جحشة على البنطلون بقوة يكاد أن يطير من الفرح، وتقهقهر إلى مكانه الأول وأخذ يرتدي البنطلون وانتهى في اقل

من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً... ترى هل ينقصه شيء؟... المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رؤوسهم بالطرابيش... ولكنهم يضعون أقدامهم في أحذية... ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغر الذي يكرب حياته. وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ (سجائر... العلبة بحذاء... العلبة بحذاء). واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل في المرة الأولى. ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالمسير. فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً. وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة، وطائر الليل يحلق في الفضاء، فتوقف جحشة وفي نفسه لوعة، وفي عينيه نظرة الليل يحلق في الفضاء، فتوقف حجشة وفي نفسه لوعة، وفي عينيه نظرة حسرة وغيط. ولما أخذ القطار يتحرك لمحه حارس في عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح به الإنجليزية ثم بالإيطالية (اصعد بسرعة. اصعد أيها الأسير) فلم يفهم جحشة ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده في حركاته مستهزئاً به مطمئناً إلى بعهد عن متناول يده. فصاح به الحارس مرة أخرى والقطار يبتعد رويداً رويداً (إصعد، إني أحذرك، اصعد) فزمّ جحشة شفتيه احتقاراً وولاه ظهره وهم بالمسير؛

فكور الحارس قبضة يسره مهدداً وصوب بندقيته نحو الشاب الغافل... وأطلق النار. ودوي عزيف الرصاصة يصم الآذان وأعقبها صرخة ألم وفزع. وتصلب جسم جحشة في مكانه فسقط الصندوق من يده، وتناثرت علب السجائر والكبريت. ثم انقلب على وجهه جثة هامدة.

obeikandl.com

# عمي حسن[١٤]

رحماك اللهم! ماذا فعلت؟... أين جلدي وأين رشادي؟... وكيف أداري خجلي حيال هذه الشعيرات المحترقة؟... وكيف أستمع لنجوى هذا الرأس الكبير الذي ظل - ستة وأربعين عاماً - ملتقى لتجارب الحياة، يحتفظ منها بما يشاء ويعتبر بما يشاء؟!... فهل حقاً خانني البصر وهل حقاً خانتني الإرادة؟... أو إن عمق إحساسي بالخجل والخيبة هو الذي كبر الهفوة لناظري وضاعف من أثرها في شعوري؟... والحق أني لم آت أمراً أشذ به عن سنة الطبيعة، بل لو كنت ذا فطنة لأيقنت من زمن طويل أنه ما من هذا المصير مفر... ألم ألق في مرتع الحسن الصبيح والشباب النضير أشهد نضجه واستواءه؟... فمن أين كانت لي قوة أصد بها نزوع القلب عن أن يجني من حصاد الهوى ما يروى به غلة فؤاد أضناه الترمل وعناه التوق إلى الأليف

---

[١٤] العدد ٥٦٦ - بتاريخ: ٠٨ - ٠٥ - ١٩٤٤

وقد عرفت (فيفي) وهي في المهد بعد أن نورت الدنيا بأسبوع واحد، وكنت في ذاك الوقت في الثلاثين وأنتظر مولودا أيضاً. وأذكر أني كنت أوصى زوجي - ضاحكاً - أن تكثر من النظر إلى وجه طفلة جيراننا عل مولودنا المنتظر يقبس من روائها حسناً. ولم يكن يفصل بين الشقتين سوى ردهة قصيرة فجعلت الصغيرة - حين دعاها الداعي إلى تعلم الحبو والمشي - تقطعها حبواً ومشياً، فنمت رويداً رويداً تحت سمعي وبصري، لها منتهى ودي وحبي وحناني، بل لكأنها ما كانت تتحرك وتنمو إلا بالحرارة التي يسكبها حبي على قلبها الصغير. وزاد هذا الحب وتضاعف حين ابتلاني الدهر فسلبني زوجي ثم ابني الصغير، فعلقتها بجنون ووجدت فيها سلوه وعزاء. وأحبتها أختي - وكانت تقيم معي - فصرنا لها أباً وأماً. كان حسبي أن أنظر في عينيها الخضراوين أو أعابث شعرها الكستنائي أو ألبي نداءها فرحاً مسروراً إذا نادت (عمي حسن)، وكان أبوها يضاحكني فيقول: (ما عرفت كفيفي طفلة تحب عمها أكثر من أبيها!)

فيفي الصغيرة تلك هي التي أحببت فيها بعد حباً غير الحب الأبوي الأول. وإني لأتساءل متحيراً متى أحببتها هذا الحب الجديد؟ أو كيف تحول حناني إلى عاطفة قوية وشغف جنوني

وهيام حق؟.. هل تولد فجأة ذاك اليوم الرهيب الذي لا ينسى؟ هذا بعيد. ففي مثل حالتي لا يأتي الحب فجأة؛ بل كيف أقول فجأة وقد ترعرعت عمرها السعيد البالغ ستة عشر عاماً بين يدي وفي متناول أنفاسي! إنما يمكن أن يقال إن بذرته ذرت في فؤادي منذ استوى العود الغض وارتوى بماء الشباب، وامتلأ الصدر والخدان بالأنوثة، وومض في العينين بريق الفتنة والملاحة، فلم أعد أرى طفلة تلثغ باسمي أو تلهو بسلسلة ساعتي، ولكن شابة حسناء ريا الشباب ناضرة الحسن تنفث الفتنة والهيام. هنالك بهرني الحسن وملأني الإعجاب. وكنت كلما دب دبيب الفتنة في قلبي تعوذت بالله وأنكرت مشاعري. ثم جفلت من مداعبتها، فلم أعد أربت على خدها أو أعابث ذؤاباتها، وهمت في أجواء من الغموض واللهفة والشوق المكتوم والحيرة القاتلة والشغف والخوف، ولولا أني ممن يندر أن يفكروا في أنفسهم أو ينظروا في باطنهم لفطنت إلى حالي، ولكني رحت أقنع نفسي بأن ما انتابني من اضطراب ما هو إلا أثر من إعجابي بالأنوثة الناضجة يتحد في قلبي بحبي الطاهر القديم. هكذا خادعت نفسي. على أني لم ألبث أن صحت يوماً وقد بلغت بي الوحشة حد الجنون - وكانت غابت أسبوعاً في بيت

جدها - (رباه إن الحياة لا طعم لها بدون فيفي واعتراني شجن وكمد ووجوم

وجاء يوم فرأيت قلبي على ضوء الشمس الساطع وبرح الخفاء، وكنت أعبر فناء البيت إلى الطريق، وكانت فيفي تلهو كمحبوب عادتها بركوب الدراجة في الفناء. فلما رأتني مقبلاً اتجهت نحوي بدراجتها في رشاقة حتى صارت على بعد أذرع مني ثم رفعت يمناها تحييني، فاختل توازنها، واضطربت بها الدراجة فهرعت نحوها حتى حاذيتها، فاعتمدت بيسراها على كتفي الأيسر متفادية السقوط، ونظرت إليها مؤنباً فطالعتني بعينين ضاحكتين، وقد شدت راحتها على كتفي وأنغرست ركبتها في قلبي ولم أسترد نظرتي فأدمت إليها النظر وقد لانت أساريري. ثم ما لبثت أن ابتلعني تيار عارم من الوجد والهيام فوددت بكل ما أوتيت من قوة وشغف لو ضممتها إلى قلبي. وجعل هذا القلب ينتفض كان ركبتها مفتاح كهربائي يسلط على شعافه تياراً عنيفاً هكذا انقطع الشك وبرح الخفاء. وبعد لحظات كنت ماضياً في طريقي وقد انشغلت عن الدنيا جميعاً، فلم أعد أشعر إلا بنفسي التي نبضت بحياة جديدة كدوامة ثائرة، فأثملني طرب دفين، ولكن لم يزايلني شعور بالتبعة والخوف

والحزن. وجعلت أتساءل (إلى أين تمضي بي يا قلبي؟) نعم إلى أين؟... فهذا طريق غير مأمون العثار، فأين مني خطى الشباب وقلوب الفتيان؟... وهل أنا إلا (عم حسن) فماذا يقول والداها العزيزان لو علما بما جد في قلبي؟... كيف يريان جارهما الرزين الوقور وقد انقلب عاشقاً ولهان؟... بل مالي أثقل على قلبي بالتردد والمخاوف، فلأقل مع قلبي إن هذا الحب شئ طبيعي لا غرابة فيه، وإنه لن يكون الأول أو الأخير من نوعه؛ بل سأفرض أن جاري العزيز بارك بعطفه ما يختلج في صدري، فكيف لي بعد ذلك أن أحولها من ابنة إلى زوجة! وكيف أجعلها تنظر إلى عمها حسن فترى فيه حبيبها حسن؟ وضاق صدري والتهب جبيني وذكرت الصلعة اللامعة التي أتوج بها هامتي، والشيب الذي يحرق فؤادي، وثلاث أسنان قد قلعت، وسنة جديدة قد نغضت، فأكملت مسيري ممتلئاً شجناً وكآبه.

ولكن هل ارعويت؟... كلا... ففي اليوم الثاني جاءتنا إلى البيت خفيفة نشيطة كعادتها - وكانت أختي تصلي العصر - فأقبلت نحوي وجلست إلى جانبي يتألق ثغرها بالابتسام، فأحدث مجيئها شفاء لما كنت أكابد من أوجاع الانتظار، وهيج أسقاماً أنكي من هاتيك الأوجاع وأمر. وجدتنا منفردين فخلت أني

أنفرد بها لأول مرة، وداخلني اضطراب وقلق وهيام. ولم تكن أول مرة تخلو إلي وأخلو بها، ولكن أجدت لي الخلوة هذه المرة شعوراً لا عهد لي به، ووجدت في أعماق نفسي حسيس أمنية يهمس لي لو تخلو لنا الدنيا كما تخلو هذه الحجرة!.. لو تخلو فلا أخت ولا أب ولا أم ولا مخلوق سواها وسواي. هنالك تؤاتيني شجاعتي وتنجاب عني الوساوس وتنحسر عن ناظري غشاوة القنوط... فمن لي بأن أطير بها إلى تلك الدنيا المقفرة؟.. وحولت إليها عيني فرأيت المرح والبراءة، فثبتهما على وجهها المحبوب. وما كان أسعدني رجلاً في تلك اللحظة لو جثوت - أنا والأعوام التي أحملها على عاتقي - عند قدميها الصغيرتين مادا راحة راغب ضارع... وشعرت بتحديق عيني فرشقتهما بنظرة صافية حتى أحسست الأرض تميد بي، وتعمدت ما وسعتني الحيلة أن أجعل لنظرتي معنى جديداً غير ما عهدت، وأن أحمل عيني رسالة من أعماق الفؤاد لأجذبها من عالمها البريء إلى دنيا آمالي وأحلامي. ولكن هل أدركت شيئاً؟... هل بلغت الرسالة؟... أما لو كان ذلك كذلك لتولاها الارتباك وخضبها الخجل...

فهل تعثرت في الارتباك أو غض من طرفها الحياء؟ اختلط على عيني الأبصار والتوهم واصطرع في مجال إحساسي قوى الإدراك ونوازع الأمل. وعطفت رأسها عني برشاقتها الحلوة فاستقر بصري على خدها الوردي. وفي نشوتي وهيامي تجمعت وثبة الحياة الجارية في كياني في رغبة واحدة لا تقاوم... أن ألثم هذا الخد. وهوى عنقي نحوها في ذهول الوجد فلثمتها! والتفتت نحوي كالفزعة. ثم ضحكت ضحكة عالية ملأ رنينها أذني ومشاعري جميعاً؛ ثم طوقت عنقي بذراعيها وقبلتني في خدي! هل نلت المرام؟. رباه! كانت قبلة اقشعر لسريان برودتها جسدي، فجمد دمي في عروقي، وسكت قلبي عن الخفقان، واحترق وجهي خجلاً. كانت الطفلة المرحة البريئة تقبل عمها حسن، وكان مثلي كمثل مجنون عاد إليه رشاده فجأة فوجد نفسه متجرداً وسط قوم عقلاء. ألا ما أبعد الشقة بين الأفعال والنيات! ألم تلتفت إلى في رشاقة الغزلان؟ ألم تطوق عنقي بذراعيها؟ ألم تطبع على خدي قبلة؟ ولكن أين من هذا كله الحب والولع؟! وشق على الخجل وشقت على الخيبة، وبينما راحت هي، وكأنها نسيت كل شئ، تروى لي ما شاهدت في السينما أمس، جعلت أحادث نفسي: رحماك اللهم! ماذا

فعلت؟ أين جلدي وأين رشادي؟ وتساءلت محزوناً: ألا يجمل بي أن أشد الرحال إلى بيت غير هذا الحي؟!

obeikandl.com

# همس الجنون[١٥]

ما الجنون:

إنه فيما يبدو حالة غامضة كالحياة وكالموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج، أما الباطن، أما الجوهر، فسر مغلق، وصاحبنا يعرف الآن أنه نزل ضيفاً بعض الوقت بالخانكة، ويذكر - الآن أيضاً - ماضي حياته كما يذكره العقلاء جميعاً، وكما يعرف حاضره، أما تلك الفترة القصيرة - قصيرة كانت والحمد لله - فيقف وعيه حيال ذكرياتها ذاهلاً حائراً لا يدري من أمرها شيئاً تطمئن إليه النفس. كانت رحلة إلى عالم أثيري عجيب، مليء بالضباب، تتخايل لعينيه منه وجوه لا تتضح ملامحها، كلما حاول أن يسلط عليها بصيصاً من نور الذاكرة ولت هاربة فابتلعتها الظلمة. وتجيء أذنيه منه أحياناً ما يشبه الهمهمة، ما إن يرهف السمع ليميز مواقعها حتى تفر متراجعة تاركة صمتاً وحيرة.

---

[١٥] العدد ٦٠٧ - بتاريخ: ١٩ - ٠٢ - ١٩٤٥

ضاعت تلك الفترة السحرية بما حفلت من لذة وألم. حتى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستاراً كثيفاً من الصمت والتجاهل لحكمة لا تخفي. فاندثرت دون أن يتاح لها مؤرخ أمين يحدث بأعاجيبها. ترى كيف حدثت؟! متى وقعت؟! كيف أدرك الناس أن هذا العقل غدا شيئاً غير العقل؟؟ وأن صاحبه أسمى فرداً شاذاً يجب عزله بعيداً عن الناس كأنه الحيوان المفترس؟؟

كان إنساناً هادئاً أخص ما يوصف به الهدوء المطلق. ولعل ذلك ما حبب إليه الجمود والكسل. وزهده في الناس والنشاط. ولذلك عدل عن مرحلة التعلم في وقت باكر. وأبى أن يعمل عملاً مكتفياً بدخل لا بأس به. وكانت لذته الكبرى أن يطمئن إلى مجلس منعزل من طوار القهوة، فيشتبك راحتيه على ركبتيه، ويلبث ساعات متتابعات جامداً صامتاً، يشاهد الرائحين والغادين بطرف ناعس وجفنين ثقيلين. لا يمل ولا يتعب ولا يجزع. فعلى كرسيه من الطور كانت حياته ولذته. ولم يكن وراء ذلك المظهر البليد الساكن حرارة أو حركة في قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم

والعقل، الحواس والخيال. كان تمثالاً من لحم ودم يلوح كأنما يشاهد الناس وهو بمعزل عن الحياة جميعاً.

ثم ماذا؟

حدث في الماء الآسن حركة بريئة فجائية كأنما ألقى فيه بحجر.

كيف؟!

رأى يوماً - إذ هو مطمئن إلى كرسيه على الطوار - عمالاً يملئون الطريق - يرشون رملاً أصفر فاقعاً يسر الناظرين بين يدي موكب خطير. ولأول مرة في حياته يستثير دهشته شيء فيتساءل لماذا يرون الرمل... ثم قال لنفسه إنه يثور فيملأ الخياشم ويؤذي الناس، وهم أنفسهم يرجعون سراعاً فيكنسونه ويلميونه، فلماذا يرشونه إذا؟! وربما كان الأمر أتفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولكن تساؤله بدا له كأخطر حقيقة في حياته وقتذاك. فحال أنه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى. ووجد عملية الرش أولاً والكنس أخيراً والأذى فيما بين هذا وذاك حيرة، بل أحس ميلاً إلى الضحك. ونادا ما كان يفعل. فضحك ضحكاً متواصلاً حتى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هذا محض انفعال طارئ. فالواقع أنه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى حال جديد. ومضى

يومه حائراً أو ضاحكاً، يحدث نفسه فيقول كالذاهل، يرشون فيؤذون ثم يكنسون. . . ها ها ها.

وفي صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من حيرته بعد. ووقف أمام المرآة يهيئ من شأنه. فوقعت عيناه على ربطة رقبته. وسرعان ما أدركته حيرة جديدة، فتساءل لماذا يربط رقبته على هذا النحو؟ ما فائدة هذه الربطة؟ لماذا نشق على أنفسنا في اختيار لونها وانتقاء مادتها؟ وما يدري إلا وهو يضحك كما ضحك بالأمس. وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحيرة ودهشة. ومضى يقلب عينيه في أجزاء ملابسه جميعاً بإنكار وغرابة. ما حكمة تكفين أنفسنا على هذا الحال المضحك؟ لماذا لا نخلع هذه الثياب ونطرحها أرضاً؟ لماذا لا نبدو كما سوانا الله؟ بيد أنه لم يتوقف عن ارتداء ملابسه حتى انتهى منها، وغادر البيت كعادته، ولم يعد يذوق هدوءه الكثيف الذي عاش ففي إهابه دهراً طويلاً قانعاً مطمئناً. كيف له بالهدوء والرمل لا يزال عالقاً بأديم الأرض! كيف له بالهدوء وهذه الثياب الثقيلة تأخذ بخناقه على رغمه! أجل على رغمه؛ قد اجتاحته موجة غضب وهو يحث خطاه. وكبر عليه أن يرضي بقيد على رغمه. أليس الإنسان حراً؟!

وتفكر ملياً ثم أجاب بماسة، بلى أنا حر، وملأه بغتة الشعور بالحرية. وأضاء نور الحرية جوانب روحه حتى استخفه الطرب. أجل هو حر. نزلت عليه الحرية كالوحي فملأه يقينا لا سبيل إلى الشك فيه. إنه حر يفعل ما يشاء كيف شاء حين شاء غير مذعن لقوة أو خاضع لعلة. لسبب خارجي أو باغت باطني حل مسألة الإرادة في ثانية واحدة. وأنقذها بحماسة فائقة من وطأة العلل. وادخله شعور بالسعادة والتفوق عجيب. فالقى نظرة ازدراء على الخلق الذين يضربون في جوانب السب مصفدين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاُ. إذا ساروا لم يملكوا أن يقفوا. وإذا وقفوا لم يملكوا أن يسيروا. أما هو فيسير إذا أراد، ويقف حين يريد. مزدرياً كل قوة أو قانون أو غريزة. وأهاب به شعوره الباهر أن يجرب قوته الخارقة فلم يستطع أن يعرض عن نداء الحرية. توقف مسيره بغتة وهو يقول لنفسه (هأنذا أقف لغير ما سبب) ونظر فيما حوله ثواني ثم تساءل: أيستطيع أن يدفع يديه إلى رأسه؟ أجل يستطيع. وهاهو يرفع يديه غير مكترث لأحد من الناس. ثم تساءل مرة أخرى هل تواتيه الشجاعة على أن يقف على قدم واحدة؟

وقال لنفسه نعم أستطيع وما عسى أن يعتاق حريتي؟ وراح يرفع يسراه كأنه يقوم بحركة رياضية في أناة وعدم مبالاة كأنه وحده في الطريق بلا رقيب. وغمرت فؤاده طمأنينة سعيدة وملأته ثقة بالنفس لا حد لها. فمضى يتأسف على ما فاته - طوال عمره - من فرص كانت حرية بأن تمتعه بحريته وتسعده بحياته. واستأنف مسيره وكأنه يستقبل الحياة من جديد.

ومر في طريقه إلى القهوة بمطعم كان يتناول به عشاءه في بعض الأحايين. فرأى على طواره مائدة ملأي بما لذ وطاب. يجلس إليها رجل وامرأة متقابلين يأكلان مريئاً ويشربان هنيئاً. وعلى بعد يسير جلس جماعة من غلمان السبيل، عرايا إلا من أسمال بالية تغشى وجوههم وبشرتهم طبقة غليظة من غبار وقذارة. فلم يرتح لما بين المنظرين من تنافر. وشاركته حريته عدم ارتياحه فأبت عليه أن يمر بالمطعم مر الكرام. ولكن ما عسى أن يصنع؟ قال له فؤاده بعزم ويقين (ينبغي أن يأكل الغلمان مع الآخرين). ولكن الآكلين لا يتنازلان عن شيء من هذه الدجاجة التي أمامهما بسلام. هذا حق لا ريب فيه. أما إذا رمة بها إلى الأرض فتلوثت بالتراب فما من قوة تستطيع أن تحرمها الغلمان. فهل ثمة مانع من تحقيق رغبته؟... هيهات ربما كان

التردد ممكناً في زمن مضى، أما الآن... واقترب من المائدة بهدوء! ومد يده إلى الطبق فتناول الدجاجة ثم رمى بها عند أقدام العرايا. وتحول عن المائدة وسار إلى حال سبيله كأنما لم يأت أمراً نكراً، غير عابئ الزئير الذي يلاحقه مفعما بأقذع السباب والشتائم. بل غليه الضحك على أمره، فاسترسل ضاحكاً حتى دمعت عيناه. وتنهد بارتياح من الأعماق، وعاوده شعوره العميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

وبلغ القهوة فمضى إلى كرسيه واطمأن إليه كعادته. بيد أنه لم يستطع هذه المرة أن يشبك راحتيه حول ركبته ويستسلم لسكونه المعهود. لم تطاوعه نفسه، فقد فقدت قدرتها على الجمود. أو برنت من عجزها عن الحركة. فنبا به مجلسه، حتى هم بالنهوض. إلا أنه رأى - في تلك اللحظة - شخصاً غير غريب عن ناظريه وإن لم تصله به أسباب التعارف. كان من رواد القهوة مثله. وكان جسماً ضخماً وأوداجا منتفخة، يسير مرفوع الرأس في خيلاء، ملقيا على ما حوله نظرة ترفع وازدراء، تنطق كل حركة من حركاته، وكل سكنة من سكناتة بالزهو والكبر كأنما يثير الخلق في نفسه ما تثيره الديدان في نفس رقيقة مرهفة الحس. وكأنه يراه لأول مرة، بدا له قبحه وشذوذه عارياً.

فغالبته هذه الضحكة الغريبة التي ما انفكت هذين اليومين تعابثه. ولم تفارقه عيناه. وتثبتت خاصة على قفاه يبرز من البنيقة عريضاً ممتلئاً مغرياً. وتسائل أيتركه يمر بسلام!... معاذ الله، لقد ألف داعي الحرية. وعاده إلا يخالف له أمراً. وهز منكبيه استهانة. واقترب من الرجل فكاد يلاصقه. ورفع يده وأهوى بكفه على القفا بكل ما أوتي من قوة فرنت الصفعة رنيناً عالياً. ولم يتمالك نفسه فأغرب ضاحكاً. ولكن لم تنته هذه التجربة بسلام كأختها السابقة. فالتفت الرجل نحوه في غضب جنوني، وأمسك بتلابيبه وانهال عليه ضرباً وركلاً، حتى خلص بينهما بعض الجلوس. وفارق القهوة لاهثاً. ومن عجب أنه لم يستشعر الغضب ولا الندم. وعلى العكس من ذلك ألمت بحواسه لذة عجيبة لا عهد له بها من قبل. وافتر ثغره عن ابتسامة لا تزايله. وفاضت نفسه بحيوية وسرور يغشيان أي ألم، لم يعد يكترث لشيء غير حريته التي فاز بها في لحظة سعيدة من الزمان وأبى أن يغرب عنها ثانية واحدة من حياته. ومن ثم القي بنفسه في تيار زاخر من التجارب الخطيرة بإرادة لا تلثني وقوة لا تقهر. صفع أقفية وبصق في وجوه وركل بطونا وظهوراً. ولم ينح في كل حال من اللكمات والسباب.

فحطمت نظارته ومزق زر طربوشه، وتهتك قميصه وانفضت ثنيتاه. ولكنه لا ارتدع ولا ازدجر ولا انثنى عن سبيله المحفوف بالمخاطر، ولا فارق الابتسام شفتيه ولا خمدت نشوة فؤاده الثمل، ولو اعترض الموت طريقه لاقتحمه غير هياب.

ولما آذنت الشمس بالمغيب عثرت عيناه المتجولتان بحسناء مقبلة متأبطة ذراع رجل أنيق المنظر ترفل في ثوب رقيق شفاف. تكاد حلمة ثديها تثقب أعلى فستانها الحريري. وجذب صدرها الناهد عينيه فزادتا اتساعاً ودهشة. وهاله المنظر، وكانت تقترب خطوة فخطوة حتى باتت على قيد ذراع وكان عقله - أو جنونه - يفكر بسرعة خيالية. فخطر له أن يغمر هذه الحلمة الشاردة. إن رجلاً ما يفعل ذلك على أية حال فليكن هذا الرجل. واعترض سبيلهما ومد يده بسرعة البرق وقرص. آه. لقد انهالت عليه اللطمات واللكمات. وأحاط به كثيرون ولكنهم في النهاية تركوه، لعل ضحكته الجنونية أخافتهم. ولعل نظرة عينيه المحملقتين أفزعتهم، وتركوه على أية حال، ونجا ولم تكد تزداد حالته سوءاً. وكان لا يزال به طموح إلى مزيد من المغامرات. ولكن لاحت منه نظرة إلى ملابسه فهاله ما يرى من تمزقها وتهتكها. وبدلاً من أن يأسى على نفسه

راح يذكر ما دار بخلده صباح اليوم أمام المرآة، فلاحت في عينه نظرة غائمة، وعاد يتساءل: لماذا يدع نفسه سجيناً في هذه اللفائف تشد على صدره وبطنه وساقيه، وناء بثقلها، وشعر لوطأتها باختناق. فغلت مراجله ولم يستطع معها صبراً. وأخذت يداه تنزعانها قطعة فقطعة، بلا تمهل ولا إبطاء، حتى تخلص منها جميعاً، فبدا عارياً كما خلقه الله. وعابثته ضحكته الغريبة، فقهقه ضاحكاً واندفع في سبيله...

obeikandl.com

# صوت من العالم الآخر[١٦]

(مهداة إلى روح أبي العلاء مؤلف رسالة الغفران)

- ١ -

مقدمة

(سودت هذه الصحائف يد ميت. كتبها بعد أن فارق الحياة واطمأن إلى مضجعه الأخير. ويبدو هذا - أول وهلة – غريبا لا يصدق؛ ولكنه يغدو لا غرابة فيه إذا تذكرنا حكمة قدماء المصريين التي أملت عليهم أن يودعوا قبر الميت آثاره وما كان يحبه أو ينتفع به في دنياه، كي تتمتع روحه - إذا زارت القبر وعاودت الجسد ليلة بعد أخرى - بما كانت تتمتع به في دنياه من مسرات الحياة. فان كان الميت كاتبا أو دعوا قبره -بطبيعة

[١٦] العدد ٦١٥ - بتاريخ: ١٦ - ٠٤ – ١٩٤٥ و العدد ٦١٦ - بتاريخ: ٢٣ - ٠٤ – ١٩٤٥ و العدد ٦١٧ - بتاريخ: ٣٠ - ٠٤ - ١٩٤٥



obeikandl.com

الحال - كتبه وأوراقه، وربما تسلت روحه بالكتابة كما كانت تفعل في الدنيا. وهذا ما يبدو أنه كان الواقع في الحال التي نحن بصددها فقد اكتشفت في العهد الأخير مقبرة لكاتب اسمه توتي من كتاب الأسرة التاسعة عشرة، عثر بها على مخطوط من البردي تدل القرائن على أن صاحب المقبرة- أو روحه على الأصح - كتبه على أثر الدفن مباشرة. وهو يحوي حقائق غريبة لا يدري الحي عن أكثرها شيئا، ولا يمكن أن توضع موضع الاختبار والتجربة. وقد أثارت من الدهشة ما هز الأفئدة جميعاً. ويقتصر عملي على ترجمة هذا المخطوط العجيب دون تعرض للتفسيرات التي أثيرت حوله، ولا للجدل الذي اكتنف هذه التفسيرات. وللقارئ أن يري فيما جاء به رأيه، بيد أنه ينبغي أن نذكر دائما أنها خطرات ميت.

وإليك ترجمة هذا المخطوط).

ترجمة المخطوط الهيرغليفي

يا إلهي! ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة الفانية؟! إنه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذ وطاب. لقد حليت جدرانه بصور الجواري والخدم، وفرش بأفخر الأثاث، وأجمل

الرياش. وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلي؛ وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفاكهة. وهاهي ذي مكتبتي حملت إليه بمجلداتها الحكيمة، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام. هي الدنيا كما عهدتها. ولكن هل ثمة طعم للدنيا في حواسي الآن؟! أبي حاجة إلى متعة من متعها؟! جهد ضائع ذلك الذي بذله الذين هيئوا هذه المقبرة. بيد أني لا أستطيع أن أنكر أمراً غريباً هو أنه ما فتئت نفسي تنازعني إلى القلم. يا عجبا! ما لهذه الأوراق تناديني بسحرها المحبوب؟! ألا يزال بي موضع لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى؟ أقضي علينا - معشر الكتاب - أن تشقى بضاعتنا في الحياتين؟! على أية حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبدأ بعدها رحلتي الأبدية. فلأشغل هذا الفراغ بالقلم. فلطالما دان القلم الفراغ بالجميل.

رباه! ألا زلت أذكر ذاك اليوم الذي فصل بين الحياة والموت من عمري؟! بلى. في ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبيل الغروب، بعد عمل شاق، تعناني فيه الجهد، حتى قال لي الأمير (توتي... كف عن العمل. ولا تشق على نفسك). وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربي في سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام،

ولآلئ من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت في طريقي المعهود متسمتا شجرة الجميز في طرف القرية الجنوبي حيث يقوم بيتي الجميل.

يا آمون المعبود. ما هذا الألم في العظام والمفاصل؟ ليس ما بي اثر من جهد العمل فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع. ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الإعياء بالقوة والعزم. أما هذا الألم المضني، أما هذه الرعشة المزلزلة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعباً. أيكون ذاك الخبيث الذي لا ينزل بجسم حتى يورده التهلكة؟ انطويا طريق القرية بحسنك فما في جوارحي قوة تقبس من جمالك. وأغرب يا طير السماء فما في صدر توتي المسكين حنان يناديك، وأخذت في الطريق قلقاً متأوهاً. وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي رفيقة شبابي وأم أبنائي. فهتفت بي (توتي أيها المسكين. مالك تنتفض. ما لعينيك مظلمتين...؟!) فقلت لها محزوناً مكتئباً (يا أختاه.. وقع المحضور... وحل الخبيث بجسم زوجك. هئ الفراش ودثريني. ونادي الحكيم والأبناء والأحباب: قولي لهم إن توتي على فراشه يضرع إلى ربه. فاضرعوا معه. واسألوا له الشفاء!) وحملتني اليوم غادرت قصر الأمير قبيل الغروب، بعد عمل شاق، تعناني فيه الجهد،

حتى قال لي الأمير (توتي. . . كف عن العمل. ولا تشق على نفسك). وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربي في سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام، ولآلئ من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت في طريقي المعهود متسمتا شجرة الجميز في طرف القرية الجنوبي حيث يقوم بيتي الجميل.

يا آمون المعبود. ما هذا الألم في العظام والمفاصل؟ ليس ما بي أثر من جهد العمل فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع. ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الإعياء بالقوة والعزم. أما هذا الألم المضني، أما هذه الرعشة المزلزلة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعباً. أيكون ذاك الخبيث الذي لا ينزل بجسم حتى يورده التهلكة؟ انطويا طريق القرية بحسنك فما في جوارحي قوة تقبس من جمالك. واغرب يا طير السماء فما في صدر توتي المسكين حنان يناديك، وأخذت في الطريق قلقا متأوها. وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي رفيقة

شبابي وأم أبنائي. فهتفت بي (توتي أيها المسكين. مالك تنتفض. ما لعينيك مظلمتين. . .؟!) فقلت لها محزونا مكتئباً (يا أختاه. . وقع المحظور. . . وحل الخبيث بجسم زوجك. هيئي الفراش

ودثريني. ونادي الحكيم والأبناء والأحباب: قولي لهم إن توتي على فراشه يضرع إلى ربه، فاضرعوا معه. واسألوا له الشفاء!) وحملتني التي تهواني على صدرها. وجاء الحكيم فجرعني الدواء وأشار بإصبعه إلى السماء وقال لي: (توتي. . . أيها الكاتب الكبير! يا خادم الأمير الجليل! أنت في حاجة لرحمة الرب. فادعه من أعماق قلبك). ورقدت لا حول لي ولا قوة. يا آمون المعبود جلت حكمتك! ألم أصحب سيدي الأمير إلى الشمال في جيوش فرعون؟ ألم أشهد القتال في صحاري زاهي؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل؛ بلى أيها الرب. ونجوت من الرماة والعجلات والمعارك. فكيف يتهددني الموت في قريتي المحبوبة الآمنة بين أحضان زوجي وأمي وأبنائي؟! وغرقت في أبخرة الحمى. واشتد الدوار برأسي، وسال بلساني الهذيان، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبي. ما أقساك أيها الموت! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخري، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم، لا تهزك الدموع، ولا تستعطفك الآمال. تدوس حبات القلوب، وتتخطى الأماني والأحلام. ثم لا تبدل سنتك ولو كان الفريسة في ربيع العمر الزاهر. توتي في السادسة والعشرين ذو بنين وبنات، ألا تسمع؟ ماذا يضيرك لو تركت أنفاسي تتردد في صدري؟ دعني

ريثما أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة. إنها لم تسؤني قط ولم أزهد فيها أبداً. أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد. كانت الصحة طيبة والمال موفورا والآمال كباراً. ألم تحط بكل أولئك خبراً؟ ومن حولي قلوب محبة ونفوس والهة، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة؟ كأني لم أعش ساعة واحدة في هذه الحياة الجميلة المحبوبة. ماذا رأيت من مشاهدها؟ ماذا سمعت من أصواتها؟ ماذا أدركت من معارفها؟ ماذا ذقت من فنونها؟ ماذا جربت من ألوانها؟ أي فرص ستضيع غداً؟ أي نشوات ستخمد! أي عواطف ستهمد! أي مسرات ستبيد! ذكرت ذلك جميعه. ودارت بخلدي أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد، ما بين مفاتن الماضي وسحر الحاضر وأماني المستقبل. وجرت أمام حواسي الورود والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشارب والألحان والأفكار والحب والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه وتساءلت: أيمضي كل هذا إلى الفناء؟ وانقبض صدري أيما انقباض وامتلأت حزناً وكمداً، وهتفت كل جارحة لي (لا أريد أن أموت). وتتابعت جحافل الليل. فغلب النوم الصغار. ولبثت زوجي عند رأسي وأمي عند قدمي، وانتصف الليل ونحن على

حالنا. ثم استدار وأوغل في الرحيل، ثم بهتت ذوائبه بزرقة الفجر. هنالك داخلني شعور غريب بالرهبة وتولاني إحساس بالخوف. وأطبق السكون وأنذر بشيء خطير. ثم شعرت بيد أمي تدلك قدمي وتقول بصوت متهدج (بني... بني!) وهتفت زوجي المحبوبة (توتي ماذا تجد؟) ولكني لم أستطع جوابا. لا شك أن أمراً استثار جزعها. ترى ماذا يكون؟ هل لاح في وجهي النذير؟ وتحولت عيناي على غير إرادة مني نحو مدخل الحجرة. كان الباب مغلقاً بيد أن الرسول دخل، دخل دون حاجة إلى فتح الباب. فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه. واقترب مني في خطى غير مسموعة: كان مهيباً صامتاً مبتسماً ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناي. ولم أعد أرى من شئ سواه. وأردت أن أضرع إليه ولكن لم يطاوعني اللسان. وكأني به قد أدرك نيتي الخفية. فازدادت ابتسامته اتساعا. فآنست منه رفقاً. ولم أعد أبالي شيئاً. انجابت عني وساوس الليل وأحزانه وحسراته. وغفلت عن دموع من حولي. ووجدت نفسي في حال من الاستهانة والطمأنينة لم اعهدها من قبل. سلمت في محبة لا نهائية وتركت جسمي في المعركة وحيداً! رأيت - دون مبالاة ألبته - دمي يقاوم في عروقي، وقلبي يدق ما

وسعه الجهد، وعضلاتي تنقبض وتنبسط، وأنفاسي تتردد من الأعماق، وصدري يعلو وينخفض. وشعرت بالأيدي الحنون تسند ظهري وتحيط بي. رأيت ظاهري وباطني رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث. وقد تحول الرسول عني إلى جسمي وأخذ في مباشرة مهمته في ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجملتين. وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تذعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت، حتى غادرت الفم المفغور في زفرة عميقة. سكن جسمي وصمت إلى الأبد. وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد. وغمرني شعور عجيب بأني فارقت الحياة. وأني لم أعد من أهل الدنيا. . .

غمرني شعور عجيب بأني فارقت الحياة، وأني لم أعد من أهل الدنيا، ماذا حدث؟! وما الذي تغير فيّ؟! مازلت في الحجرة. والحجرة كما كانت، فأمي وزوجي تحنوان على جسمي، ولكن حدث شيء بلا ريب، بل أخطر الأشياء جميعاً. لم أوخذ على غرة. ولو كان بي قدرة على الكلام لأجبت زوجي - حين سألتني (توتي. . . ماذا تجد؟) بأني أموت. ولكني فقدت قدرتي على الكلام وغيره. فلم أوخذ على غرة كما قلت، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع بدبيب الكرى وتخدير النعاس. ثم رأيته جهرة. والذي لا شك فيه أن الموت مؤلماً ولا مفزعاً كما يتوهم البشر، ولو عرف حقيقته الحيّ لنشده كما ينشد نشوة الخمر المعتقة، وفضلاً عن هذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئاً تافهاً حقيراً إذا ما تخايل في الأفق ذاك النور الإلهي البهيج. كنت مكبلاً بالأغلال فانفكت أغلالي. كنت حبيساً في قمقم فانطلق سراحي. كنت ثقيلاً مشدوداً إلى الأرض فخلصت من ثقلي وأرسلت وثاقي. كنت محدوداً فصرت بغير حدود. كنت حواس قصيرة المدى

فانقلبت حساً شاملا كله بصر وكله سمع وكله عقل، فاستطعت أن أدرك في وقت واحد ما فوقي وما تحتي وما يحيط بي، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامي لأتخذ من الكون جميعاً جسماً جديداً. حدث هذا التغيير الشامل الذي يجل عن الوصف في لحظة من الزمان، بيد أني ما برحت أشعر بأني لم أغادر الحجرة التي شهدت أسعد أيام حياتي السابقة. كأن العناية وكلتني بجسمي القديم حتى ينتهي إلى مستقرة الأخير، فجعلت أتأمل ما حولي في سكون وعدم اكتراث. وقد غشى جو الحجرة حزن وكآبة، وأخذت أمي وزوجي تتعاونان على إنامة جسمي على الفراش، ثم قبلت زوجي جبيني. ولثمت أمي قدمي، ونادتا أبنائي والخدم. وراحوا جميعاً يعولون وينتحبون، رأيت جسمي - صاحبي القديم - بملامحه المعهودة راقداً لا حراك به، وقد ابيض لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه، ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمداً وحزناً وغماً. ومضيت أنظر إليهم بعدم اكتراث غريب كأنه لم تربطني بهم يوماً آصرة قربى! ما هذا الجسم الميت! لماذا تصرخ هذه المخلوقات؟ ما هذا الأسى الذي جعل من سحنهم دمامه شوهاء! كلا لم أعد من أهل هذه الدنيا، ولم يردني إليها

صراخ أو بكاء، وددت لو تنقطع أسبابي بها لأحلق في عالمي الجديد. ولكن وا أسفاه، إن بقية من حريتي لم تزل عزيزة علي، أسيرة إلى حين. فلآخذ نفسي بالصبر وإن شق علي. وجاءت أمي بملاءة وسجت الجثة، ثم أخرجت العيال والخدم، وأخذت زوجي من يدها، وغادرتا الحجرة، وأغلقتا الباب. لم يغيبا عن ناظري لأن الجدران لم تعد حائلاً يحجب شيئاً عن بصري، فرأيتهما وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد، ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان من ضفائرهما وتحثوان التراب على رأسيهما، وخلعتا النعال وهرعتا إلى باب الدار، وانطلقتا تصوتان وتلدمان، ومضت تصرخ (وا أبناه) فتصرخ زوجي (وا زوجاه) ثم تهتفان معاً (يا رحمتا لك يا توتي المسكين! خطفك الموت ولم يرحم شبابك) وتركتا الدار على تلك الحال من العويل والنواح، وأخذتا في طريقهما، حتى إذا مرتا بأول دار تليهما برزت لهما ربة الدار في ارتياع وصاحت بهما: (مالكما يا أختاي!) فأجابت المرأتان (خربت الدار، وتيتم الصغار، وثكلت الأم، وترملت الزوج، يا رحمة لك يا توتى!) فصوتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت (وا حر قلباه. يا خسارة الشباب... يا ضيعة الآمال...) وتبعت المرأتان وهي تحثو التراب على رأسها

وتلطم خديها، وكلما مررن بدار برزت ربتها وانضمت إليهن، حتى انتظم الحشد نساء القرية جميعاً، وتقدمتهن امرأة دربة بالنياحة، فجعلت تردد اسمي وتعدد فضائلي، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى في كل مكان. هذا اسمي ترددده النائحات، ما له لا يحركني؟!

أجل، لقد صار الاسم غريباً غرابة هذه الجثة المسجاة، وبت أتساءل: متى ينتهي هذا كله؟ متى ينتهي هذا كله؟! وعندما أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبع علينا، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدسة. كانت الحجرة مستطيلة ذات اتساع كبير، وليس بها نافذة إلا كوة تتوسط السقف، وفي الصدر قام السرير، وعلى الجانبين رفعت رفوف رصت عليها أدوات الكيمياء، وفي الوسط - تحت الكوة - حوض كبير مليء بالسائل العجيب، وخرج الرجال فلم يبق إلا رجلان، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما في فنهما، فأخذا في عملهما دون إبطاء، وقد جاء أحدهما بطست، ووضعه على كثب من السرير، ثم تعاونا معاً على تجريد الجثة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شيء. فعلاً ذلك في هدوء وعدم اكتراث، ثم قال الذي جاء بالطست وهو يغمر

عضلات صدري وذراعي: (كان رجلاً قوياً. . . أنظر!)؛ فقال الآخر: (كان توتي من رجال الأمير، يؤاكله ويشاربه، وفضلاً عن ذلك، فقد خاض غمار الحروب!)؛ فقال الذي جاء بالطست متحسراً: (لو أن الأجسام تعار!)؛ فأجابه الآخر ضاحكاً: (أيها العجوز، ما جدوى جسد ميت؟!)؛ فقال وهو يهز رأسه: (كان قوياً حقاً!)؛ فقال الآخر ضاحكاً وهو يتناول خنجراً حاداً من أحد الرفوف: (فلنختبر قوته!) وطعن الجانب الأيسر فيما يلي الصدر بخنجره، حتى غاب نصله، وشقه حتى أعلى الفخذ، وأعمل في الداخل يده بمهارة ودربه، ثم استخرج الأمعاء والمعدة، وأودعها الطست، وقفاها بالكبد والقلب، فسرعان ما رأيت باطني جميعاً، ولم يستغرق ذلك إلا دقائق معدودة، فالرجل من مهرة المحنطين الذين أتقنوا عملهم أيما إتقان، ورحت أنظر إلى باطني بعناية، وبخاصة إلى معدتي التي عرفت بقوتها ونشاطها، ولم يحل غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوة السحرية التي اكتسبها بصري، فرأيت فيها مضغ الأوزة والتين وبقايا النبيذ التي تناولتها على مائدة الأمير مساء الأمس، وذكرت قوله حين عزم علي بالطعام (كل يا توتي واشرب، وتمتع بالحياة أيها الرجل الأمين!). . . رأيت وذكرت دون

أن يعرفوني أي تأثر أو انفعال، ودون أن يزايلني عدم الاكتراث العجيب، ثم حولت بصري إلى قلبي فرأيت عالماً حافلاً بالعجائب. رأيت بشغافه آثار الحب والحزن والسرور والغضب، وصور الأحبة والرفاق والأعداء، وقد ترك الهيام بالمجد به فجوة عمقها ما خضت من معارك في بلاد زاهي والنوبة، ولاحت على رقعته مشاهد مروعة لميادين القتال، وأجزاء ملتهبة دامية من أثر ذلك الطمع العنيف الذي بعثني للكفاح بلا رحمة حتى ضممت إلى أرض أسرتي قطعة أرض تجاورها نازعني عليها جار بضع سنين. رأيت فيه جل حياتي وما عانيت من الأهواء، أما الرجل فمضى في عمله يحدوه الهدوء والمران، فأتى بكلاب دقيق وأولجه في أنفي باحتراس حتى تمكن من هدفه، ثم وجهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة، فسال مخي الكبير من منخري مادة رخوة تذرو في الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولآلئ الآمال ودخان الأحلام. هذه أفكاري منقوشة أمام عيني، فإذا قارنتها بنور الحق الذي يتخايل لروحي بدت تافهة مشوهة، لقد قاتلها المثوى الذي آوت إليه: رأسي ومخي، هاأنذا أقرأ القصيدة التي صغتها في وصف قادش! وهاهي ذي الخطب التي ألقيها بين يدي الأمير في المناسبات المختلفة، وهذه

آرائي في آداب السلوك، وهذه الحكم الذي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب قاقمنا! كل أولئك أزاحه الرجل مع فتات المخ فاستقر بين الأمعاء والمعدة في الطست الدامي، غير ما تناثر على الأرض فداسته الأقدام. قال الحكيم وهو يعيد الكلاب إلى موضعه (الآن صارت الجثة نظيفة!) فقال صاحبه ضاحكاً (ليتك تجد بعد موتك يداً ماهرة كيدك!) وحمل الحكيمان ما تبقى من جسمي إلى الحوض الكبير، وأناماه فيه، فامتلأ بالسائل الساحر وغرق فيه، ثم غسلا أيديهما وغادرا المكان، وقد أدركت أن الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يوماً - مدة التحنيط - فمسني الجزع، ووقع في نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم لألقى عليه نظرة الوداع...

استرق إلى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم فانطلقت، لم تحدث حركة في الواقع. وإنما كان يكفي أن يتجه فكري إلى شيء حتى أجده ماثلاً أمامي. بل الواقع أعظم من ذلك؛ فقد صار بصري شيئاً عجباً؛ لا يعصى أمره شيء، صار قوة خارقة تشق الحجب وتتخطى السدود، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق. بيد أني - وقد حم الوداع - نازعني الفكر إلى أهلي. فوجدت نفسي في داري. أما الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه

مكدر. وأما زوجي وأمي فقد افترشتا الأرض، ولاح في وجهيهما الهم والغم. لشد ما أعياهما الحزن والبكاء! وغدا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مثواه الأبدي. وقد تغلغل روحي في فؤاديهما فتحرك رأسهما وتمثلت لهما في الأحلام، ورأيت القلبين المحزونين يخفقان في كمد وألم. فيم كان كل هذا الكدر؟! بيد أن شيئاً استرعى بصري! رأيت في سويداء القلبين نقطة بيضاء. فعرفتها - فما عاد يخفى علي علم شيء - فهي بذرة النسيان! آه. . . ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله. أجل أدركت هذا حق الإدراك، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشيء. وتساءلت مسوقاً بلذة المعرفة متى يمكن أن يحدث هذا؟! فأرتني عيناي العجيبتان صورة من المستقبل: رأيت أمي تمسك غلاماً بيمناها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوحة بزهرة اللوتس. فعلمت أنها خرجت - أو أنها ستخرج - للمشاركة في أسعد أعياد قريتنا، عيد الإلهة إيزيس. كان وجهها متهللا كان ابني يهتف ضاحكاً. ورأيت زوجي تهيئ مائدة - والطعام خير ما تصنع في دنياها - وتدعو إليها رجلاً أعرفه، فهو ابن خالها ساو. ونعم الزوج هو. ولو أن ميتاً يسر لسررت لها، لأن ساو رجل فاضل، وهو خير من يسعد زوجي

ويرعى أبنائي. وانصرفت روحي عن داري. فمرت في سبيلها بقصر أميري المحبوب، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسفاً لفقدي وهو الذي قدرني أجمل التقدير وجازاني خير الجزاء. ووجدته مشغولاً باختيار خلف لي فقرأت في ذاكرته أسم المرشح الجديد (آب رع) وكان من مرؤوسي النابهين وإن لم تتصل بيننا أسباب المودة. كل هذا جميل. ولكن إلام أبقى في قريتي واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام؟ رأيت منف - في لمح البصر - تعج بجمهورها الحاشد. والقصر في أروع منظر. وقد اجتمع في بهو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد. هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد. وهذا فرعون المظفر يحادث رسول الحيثيين الجبابرة في جو بالمودة عامر، أما صدر الملك فقد امتلأ احتقاراً، وترددت بأعماقه هذه العبارة: (لابد مما ليس منه بد) وأما صدر الرسول فقد بض كراهية، وتحيرت به هذه الفكرة: (صبراً حتى يموت هذا الملك القوي). ونشطت عيناي، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون. رأيت عالمي الظاهر والباطن بغير حجاب. وتسليت زمناً بتفحص ما في البطون من طعام فاخر وشراب معتق، حتى

عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم! وهما محرمان على الكهنة. وتساءلت ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودس هذا الطعام في جوفه؟! ولمحت في ناحية من معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذي أودى بحياتي، وكان الرجل يحاور قائداً في سرور وانشراح فقلت له في نفسي: (على الرحب والسعة!). ثم وقع بصري على الحاكم تيتي الذي اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالي فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه. فنظرت إليه بإمعان. وسرعان ما تكشف لي عن جسم مهزول، مريض الأعضاء، لا يفتأ يشكو مر الشكوى أسنانه ومفاصله. وكلما ألح عليه الألم تمنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه. ولذلك تملكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردد عن بتر المعوج من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة. وإلى جنب تيتي شاهدت الوزير مينا، ذلك الرجل العنيد الذي حارب فكرة الصلح بكل قواه، وطالما حرض على القتال، وتساءلت ترى ما سر عناد هذا الوزير الخطير؟! رأيت عقله نيراً، ولكن أمعاءه ضعيفة فتستبقي فضلات الطعام طويلاً فتلوث دمه في دورته فيذهب إلى عقله فاسداً، ويغشى نور أفكاره، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحاً مستقيماً كما أرى

مخه مسوداً ملوثاً! ثم دار بصري بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء بسمات الثغور. هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس لصاحبه: (متى العودة إلى القصر حيث السماع والقيان؟!) وهذا صدر يتوجع قائلاً: (لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائداً على فرقة الرماح!) وذاك صدر يقول في جزع متسائلاً: (متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشية فأهرع إلى زوجه الحسناء المحبوبة... آه...) وقال صدر لصاحبه من الأعماق: (لا يدري إنسان متى يحين الأجل. فلا يجوز بعد اليوم أن أؤخر بناء مقبرتي. أو فما فائدة المال إذاً؟!) وتولت الحيرة صدراً كبيراً فجعل يقول لصاحبه: (قال إخناتون إن الرب هو آتون. وقال جار محب إنه آمون. وهناك قوم يعبدون رع. فلماذا يتركنا الرب في شقاق؟) ولم أواصل الاستطلاع طويلاً في هذا الحفل الفرعوني الجليل إذ سرعان ما ادركني الملل. فتحولت عنه ووجدت نفسي مرة أخرى في الدنيا الواسعة. ومرت أمام ناظري مشاهد كثيرة من الأرض والسماء، لمست حقائقها جهرة، ونفذت إلى صميمها، حتى وقع البصر على جنين يتكون في رحم، فرأيته يكتسي لحماً وعظماً. وشهدت مولده. وجرى البصر معه في المستقبل فرآه طفلاً وصبياً وغلاماً وشاباً وكهلاً وشيخاً وميتاً.

وشاهد ما أعتور من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحة ومرض وحب وملل. رأى ذلك جميعه في دقيقة من الزمان. حتى كاد يختلط في أذني بكاء الميلاد وشهقة الموت! وغلبتني على أمري رغبة جامحة في اللعب فسايرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى الممات. واستلذذت كثيراً وقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن! فهذا وجه يضحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات في جزء من الثانية! وهذه امرأة تتيه حسناً وتعشق وتتزوج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمح في لحظة من الزمان! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن. هذا وغيره مما لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة. فلو أن ميتاً يضحك لأغرقت في الضحك. وبدا لي كأنه لا حقيقة في العالم إلا التغير! ورغبت نفسي عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصري. ورنوت إليهم من بعيد جمعاً غفيراً لا يحده شيء. تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وإنعدمت الفوارق. فصاروا كتلة واحدة. ساكنة صامتة. لا حياة فيها ولا حركة. رحت ألقي البصر في دهشة وحيرة. حتى ألفت المنظر. فتكشف لي عن جانب جديد كان من قبل خافياً. رأيت ذاك الظلام الساكن يشع نوراً شاملاً؛ فإن

الأنوار الخافتة المتهافتة التي تخفق في كل مخ - على حدة - ضعيفة خابية، اتصلت في المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نوراً قوياً باهراً. رأيت في لمعتها حقاً باهراً وخيراً صافياً وجمالاً متألقاً فازددت دهشة وحيرة. رباه لشد ما تعاني الروح وتتعذب ولكنها تبدع وتخلق على رغم كل شيء. رباه لقد رأى توتي أموراً جليلة وليرين أموراً أجل وأخطر. وأيقنت أن ذلك النور الذي بهرني إن هو إلا نقطة من السماء التي سأعرج أليها. وغضضت البصر. ووليت الدنيا ظهري. فوجدت نفسي في حجرة التحنيط المقدسة. وقد ملأ روحي سرور إلهي لا يوصف. .

وانتهت أيام التحنيط السبعون. فجاء الرجل مرة أخرى، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها في الأكفان، وأتوا بالتابوت وقد زالوا غطاءه بصورة جميلة لتوتي الشاب ووضعوا فيه الجثة، ثم رفعوه على أعناقهم وساروا به إلى الخارج، فتلقاه المشيعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم، وعاد النواح كأفظع مما كان يوم النعي، وذهبوا إلى شاطئ النيل، وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربي، والتفوا بالتابوت يصوتون وينوحون. قالت أمي: (لا جف لي دمع، ولا اطمأن لي قلب من

بعدك يا توتي!). وصاحت زوجي: (لماذا قضى علي بأن أعيش بعدك يا زوجي!)

وقال حاجب الأمير: (توتي أيها الكاتب المجيد. لقد تركت مكانك شاغراً!)

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكرتا لماضيهما، وكأن سبباً لم يصلني يوماً بهذه الدنيا، ولا بهؤلاء الناس. ورست السفينة إلى الشاطئ، فرفعوا التابوت مرة أخرى، ومضوا به إلى المقبرة التي أنفقت في تشييدها جل ثروتي، وأحلوه موضعه من الحجرة. وفي أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى، يلقنونني التعاليم الهادية من أقوم سبيل! ثم جعلوا ينسحبون تباعاً حتى خلا القبر، ولم يعد يسمع من شيء إلا العويل الآتي من بعيد، وأغلقت الأبواب وهيلت عليها الرمال، فانقطعت كل صلة بين العالم الذي ودعت، والدنيا التي أستقبل. . .

ملاحظة: هنا انقطعت الكتابة في المخطوط الهيروغليفي، ولعل فترة الانتظار التي أشار إليها الكاتب في أول كتابه كانت قد انتهت. ولعل رحلته الأبدية كانت قد بدأت، فشغل بها عن قلمه المحبوب، وعن كل شيء.

# حزن وسرور...[١٧]

كانت أسرة هانئة البال، يرعاها فتى في الخامسة والثلاثين، وتتعهدها بالعناية والتدبير أم حنون، وتعيش في كنفها أخت في مراقي الشباب الأولى. لم تكن من الثروة في شيء، فمرتب الفتى لا يجاوز الخمسة عشر جنيها وهو كل مالها. ولا كانت غفل الزمان عنها، فقد فقدت راعيها الأول الأب والابن في المراحل الأولى من التعليم الثانوي وأخته في مدارج الطفولة، فلاقت متاعب شديدة من الحاجة والضنك قبل أن بلغت بر الاستقرار والأمان. أنها كانت تعودت الشدة والبؤس على عهد الكفاح الذي أعقب وفاة الأب، فانتقلت بتوظيف الابن إلى حال من اليسر لم تكن - على بساطتها - تحلم بمثلها، وصارت أسرة هانئة البال، ودام لها هذا الحال خمسة عشر عاما، حتى أذنت مظاهرها بما هي مقبلة عليه حتما من التغيير والتطور وفق ما تقتضيه طبائع الأشياء وسنن الحياة. ففتاها بلغ حدا

---

[١٧] العدد ٦٣٤ - بتاريخ: ٢٧ - ٠٨ - ١٩٤٥

من العزوبة لا يجوز أن يتعداه، وإحسان أوفت على العشرين، فبات زواجها ينتظر اليوم أو غدا، وبدت الأم في شيخوختها تحث الخطو في مفترق الطرق. حقا أن كل شئ ينذر بالتغيير وغدا تنقسم هذه الخلية الواحدة فتصير خليتين، وتأخذ كلتاهما نصيبها المستقل من الحياة والنمو المتكاثر. وجاء الغد ولكن بما لم يكن في حسبان. فقدت هذه أسرة الشاخصة إلى الأفق بعين الرجاء عاهلها الأوحد. . . ذهب الرجل بأسرع مما يخطر على بال في عزة الشباب وعنفوانه. فما كان إلا أن وجد دملا في ساقه اليسرى، وأهمله أياما فبرز وغلظ ثم عالجه بإبرة محماة ففتحه، ولكنه لم يوله ما هو أهل له من العناية والتنظيف، فورم مرة أخرى وامتد ورمه شيئاً فشيئا، وسرى الألم في الساق كلها، فمضى يتصبر على آمل أن تزول تلك الإعراض وحدها، حتى أقعده الألم عن الحركة، واستدعي عند ذلك الطبيب فأشار في الحال ببتر الساق. . . وحمل إلى المستشفى وأجريت العملية فانتهت بغير السلامة، واسلم الروح ومضى بصحبته ورجولته ونفعه. وأوشكت الأم العجوز أن تجن. كانت تطمع أن يواريها في التراب بعد عمر طويل، فوارته في التراب هي بعد عمر قصير، وكانت ترجو أن تودعه

وهـو سـعيدا بأسـرته الجديـدة، فودعهـا وقـد تركهـا للوحـدة والقنوط. أما إحسان، فكانت أشقى أخت وأشقي فتاة، فقدت - أو هكـذا خالـت - الأمل الحاضـر والأمل المتخايل في غضـون المسـتقبل. وتـرك الرجـل معاشـا جنهـين وربـع جنيـه، ولكنـه أورثهما مـدخره مائة وخمسـين جنيها التي كان أعـدها لنفقـات زواج إحسـان وزواجـه هـو فيمـا بعـد. ولبسـت الأسـرة الحـداد وباتـت في حـزن الـيم. إلا أن الله الـذي لا يـرد قضـاؤه خففـه باللطف والرحمة. فقد كان لإحسان عمة عاقر على جانب من الثروة فـآوت الشـابة وأمهـا. وكانـت إحسـان فتـاة عليلـة وقعـت منـذ الصـغر فريسـة لمـرض عصـبي طـال أمـده فاسـتفحل بالإهمال - إذ كان أخوها كأمه ضعيف ثقة بالطب - وكانت إلى هـذا حـولاء، فـاختفى حسـنها وراء أهـاب شـاحب وجسـم هزيـل وحـول ذميم؛ وربما أدرك الناظر إليها أن شبابها غير عاطل من جمـال، ولكنـه جمـال مختنـق تـأبى عليـه أثـار العلـة والحـول أن يترعرع ويزدهر، فجسمها لطيف التكوين، إلا أنه ذابل، ووجهها مسـتدير حسـن القسـمات، إلا أنـه مصـفر عليـل، وعيناهـا صـافيتان واسـعتان، ولكـن قبحهمـا الحـول وأخفـى نظرتهمـا الحنون. ثم جاء موت أخيها علة على علة فانهارت قواها وغلبها

الحـزن، فـازدادت ضـعفا على ضـعف وشـحوبا على شـحوب، وأوفـت مـن مرضـها على نهايـة خطيرة. ذاك كانـت حلهـا حـين فتحت لها صدرها عمتها، ثم أخذ كل شئ يتغير من بعد ذلك، بدا هـذا التغير في الأشـهر الأولى التي أعقبـت الوفـاة، ثـم صـار طابع الحياة الجديدة وأملها المرموق، ووجدت الفتاة عناية لم تكن تجدها من قبل، فاقبل إليها يدعون لها ويقولون لامها (ربنا يفرحك بإحسان)، وغمروها بالعطف والحب والدعاء، ومنحتها أمها جامع قلبها وكان لها نصفه أو أقل قليلا. أما الذي فازت به حقا، وكان فوزها به عظيما، لأنه بعثها بعثا جديدا، فهو قلب عمتهـا، تلـك المـرأة الطيبـة المحبـة التي تتفجـر نفسـها رحمـة وحنانا، أحبتها كما كانت تحبها، وأحبتها كما كانت تحب أخاها، وأحبتها كما كانت تود وتتمنى أن تحب أمثالها من الذرية التي حرمتها، فمن أي هذا الحب أن قبلتها يوما وقالت لها:

- لا تستسـلمي للحـزن رحمـة بنفسـك ورحمـة بأمـك المحزونـة

وقالت لها مرة أخرى وقد المها ما تراه في وجهها من الشحوب والذبول - لا يرتاح لي بال إذا تركت هذا المرض يهتصر شبابك الغض...

ومضت بها إلى الطبيب، وتفحصها الرجل بعناية ووصف لها حقنا ونصحها بتبديل الهواء، فأحضرت المرأة الحقن، ثم شدوا الرحال جميعاً إلى بلبيس - بلدة العمة - وهناك بين أحضان الريف الحنون وهدوئه الشامل في الهواء النقي والشمس الصاحية سارع إليها البرء ومشى في أعصابها الشفاء، فانتهت النوبات التي كانت تعتريها، ونجت مما كان يشقي حياتها من القلق والمخاوف، وسرعان ما امتثل جسمها الهزيل واعتدل قدها وجرى في وجهها ماء الشباب ورونق الصبا وجاذبية الأنوثة. وسرت العمة بما رأت، وكأنها بستاني يجنى ما غرست يداه لأول مرة، وأطمعها هذا الظفر بالمزيد، فحدثت نفسها: (آه لو يذهب هذا الحول... فأي عينين تكونان!) ولكن ما الذي يمنع هذه الأمنية من أن تتحقق... لقد سمعت أن من أطباء العيون من يعالج الحول ويرد البصر سالما. ولم يقعدها التردد فقفلت هي وآسرتها الجديدة إلى القاهرة وقصدت إلى كبير من أطباء العيون فأملها خيرا وأجرى العملية فنجحت نجاحا باهرا فاق كل تقدير. واستوت عينان فطرتا على الميل والانحراف، وأخلى الحول مكانه لحور فاتن، ونظرة حلوة تقطر ملاحة، ونظرت إحسان في المرآة فرأت وجها جميلا لا عهد لها به،

يحسد على ما حبته الطبيعة من الحسن والجمال، فانبهرت الفتاة، واستخفتا السرور، وتناست أحزان الماضي وهمومه، وتفتح صدرها للحياة كما تتفتح الزهرة عانقها أول شعاع لشمس الربيع، وابتاعت لها عمتها أبهى حلل وأليقها بجسمها اللدن، فتبدت في ثوبها الأسود النفيس في بهاء العاج ورونقه، وأبرزتها من خدرها فقدمتها إلى أبهاء الاستقبال في بيوت المعارف والجيران، وكانت تقول لها وهي ترمقها بعين الحب والإعجاب:

- لكم يشرح صدري ويسر قلبي إذا جاءنا العروس المدخر غدا. . !

ولم يتثاقل هذا الغد ولا تأخر العريس طويلا، فجاء يطلب يدها البضة، ولما علمت الأم سر فؤادها المكلوم، ودارت دمعة ترقرقت في عينيها حين ذكرت ما ادخره الفقيد من مال لهذا الزواج ولزواجه هو أيضاً

وباتت إحسان تلك الليلة في سرور عظيم بل كانت اسعد لياليها وعندما رنق النوم بجفنيها في ساعة متأخرة، رأت فيما يرى النائم حلما مؤثرا، رأت أنها عادت إلى الشقة التي كانوا يقيمون بها قبل وفاة شقيقها، وأنها في حجرته بالذات وعلى فراشه،

ورأت في وسط الحجرة نعشا ملفوفا في الحرير الأبيض، يجلس عل رأسه شيخ كبير في عباءة سوداء وعمامة بيضاء، وكانت تبكي وتكابد ضيقا يكاد أن ينشق به صدرها، وكأنما الشيخ رق لها فوجه إليها الخطاب متسائلا:

- لماذا تبكين؟

فقالت وقد أثر فيها عطفه فانهالت مدامعها:

- أخي... أني أبكي أخي...

فأومأ الشيخ إلى النعش وقال بهدوء:

- أنه يرقد ها هنا

فحنت رأسها حتى تساقط الدمع على حجرها وقالت بصوت تختنقه العبرات:

- اعلم ذلك وا أسفاه

فسألها مبتسما:

- أتحبين أن يعود إليك؟

فنظرت إليه بعينين لا تصدقان وقد كفت عن البكاء وتساءلت:

- أتستطيع ذلك حقا؟

- نعم بغير شك



obeikandl.com

فقال بلهفة ورجاء:

- رد إليه الحياة. . . أعده إلينا

ولم تتمالك نفسها، فنهضت قائمة يلعب بفؤادها الأمل؛ فقال الشيخ بهدوئه الذي لا يفارقه:

- ليس الأمر باليسر الذي تتصورين، فلابد من ثمن يؤدي

- أي ثمن. . . وهل يغلو لقاء أن يعود أخي؟!

فهز الرجل رأسه المعمم وقال:

- إذا رد إلى الحياة، وهذا على هين، فستردين أنت إلى حالتك الأولى، يعاودك المرض ويعتريك الذبول والاصفرار والحول، ولا يلبث حتى يسترد ماله فتفقدي خطيبك!

وعلاها وجوم، وشعرت بثقل الكابوس على صدرها، فرشح جبينها عرقا وزاغ بصرها.

فابتسم الشيخ وسألها كالمتهكم:

- إيه. . هل أعيده إليك حقا؟

رباه. . . ماذا تقول؟ هل يمكن أن تنكص عن الجواب؟ وقالت وهي تزفر:

- نعم أعده



obeikandl.com

وتغير وجه الرجل، فلاح في محياه الجد والاهتمام، ووثب قائماً، ثم تحول إلى النعش يفك أربطته ويرفع غطاءه دون تردد وألقت الفتاة ببصرها إلى النعش لتستقبل العائد العزيز... ولكن اشتدت وطأة الكابوس وثقله، ورأت نفسها تتغير في مثل لمح البصر فترد إلى حالتها الأولى، فاستردت صورتها العليلة وبشرتها الشاحبة وعينيها القبيحتين، وغابت كل المسرات: فلا نضارة ولا شباب ولا مال ولا زواج... وشعرت بإعياء وخور فلم تعد قدماها بقادرتين على أن تحملاها، فسقطت جاثية على ركبتيها، وعيناها لا تتحولان عن النعش... ثم غلبها البكاء، واستيقظت عند ذاك، فرفعت رأسها عن الوسادة، وتحسست يداها وجهها والفراش، لتتأكد من أنها يقظة، وإن ما كانت تكابده حلما من الأحلام، وكان قلبها يدق بعنف اضطرب معه ما فوق القلب من قميصها الأبيض، ثم أسلمت رأسها مرة أخرى إلى الوسادة وهي تتنهد تنهدا عميقاً، وما لبثت أن أجهشت في البكاء، لا لأنها مسخت فردت إلى حالتها الأولى، ولكن لأنها ذكرت أخاها الراجل، فثارت كوامن أشجانها...